أمارابك: *مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا* www.amarabac.com
المجلد الثالث، العدد الخامس (٢٠١٢). ص ص ٣٣-٥٦

الثينك تانكس أو إمبراطوريّات الفكر:

مدخل إلى فهم الوجه الآخر لقوّة الولايات المتحدة الأمريكيّة

علي الصالح مُولى*

الملخّص: إنّ كلّ مسعى إلى إنتاج هيمنة ذات طموح إمبراطوريّ لا يتسنّى له النجاح إلاّ بتوفّر شروط وركائزَ تحققه وتُديمُه. ومن ذلك نذكر: الرؤية الإستراتيجيّة، الدعم الماليّ، التوثّب الدائم للانطلاق خارج الحدود، القوّة العسكريّة الضاربة التي تستطيع أن تتدخّل في أكثر من مكان في وقت واحد. لكنّ هذه الأسس لا يمكنها في تقديرنا أن تضمن نفوذا سياديّا من هذا القبيل على المستوى العالميّ دون دور، يبدو لنا أساسيّا وإنْ لم نرَ تواترا يُشيد به في الدراسات والإعلام. إنّنا نعني ذاك العمل الجبّار الذي تقوم به مراكز البحث المسمّاة "الثينك تانكس" (Think Tanks). إنّ هذه دراسةٌ نروم من خلالها إذن أن نعالج جملة من الأسئلة ذات الصلة بما ألمعْنا إليه: أيّة دلالة يمكن أن نسندها إلى "الثينك تانكس"؟ ما الأدوار التي تنهض بها؟ ما تكون الخصوصيّات التي بها تتميّز حتّى قيل إنّ الثينك تانكس "صناعة أمريكيّة" بامتياز؟ هل مِنْ طريق يمكن أن تُعَبّدَ أمام الباحثين والعلماء العرب حتّى يكون لهم شأن في الحياة العامّة وإزاء صُنّاع القرار؟

Les think tanks aux Etats-Unis:
Essai sur la face cachée de l'hyperpuissance américaine

Moula Ali Salah

Résumé: Toute domination ayant un caractère impérial ne peut guère ni demeurer ni atteindre ses buts sans l'existence d'un bon nombre de piliers. Je cite à titre d'exemple: une vision stratégique, un soutien financier, une ambition de conquérir, une armée de qualité qui peut intervenir dans plusieurs points dans le monde en même temps. Néanmoins, ces piliers n'arriveront jamais à garantir les finalités d'une telle tendance d'hégémonie sur le plan mondial sans un rôle quasi déterminant même si on ne le voit pas régulièrement dans les études et aux médias. C'est le rôle des centres de recherche appelés «Think Tanks». Dans ce modeste essai on vise à examiner quelques questions: que veut dire «Think Tanks»? quelles missions peuvent leurs être confiées ? quelles sont les spécificités qui nous mènent à conclure que les «Think Tanks» sont souvent vu comme un phénomène «made in usa»? ya t-il une chance pour que les savants et les chercheurs arabes prendront une place avancée et respectueuse voire décisive dans leurs sociétés et en vis-à-vis les décideurs politiques!

* أستاذ محاضر، كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة صفاقس، تونس، moula_s@yahoo.fr

تنويه ١:

صَدَق حكيمٌ وقد قال: "لا شيء أعظم من فكرةٍ وقد نضجت"[١]. وليس مجانبًا الصوابَ مَنْ قالَ: "كلّ التغييرات السياسيّة المهمّة تبدأ بفكرة"[٢]. بل قد يتغيّر شأنُ العالَم (وليس فقط السياسيّ فيه) بفكرة. ألمْ يقل أوغست كونت (August Comte): "وحدَها الأفكارُ تغيّر العالَم"[٣]. ولكنْ، متى يحين أوان الفكرة فيكونَ لها هذا الدور الخطير؟

تنويه ٢:

حين تفوّض دولةٌ أمرها لعلمائها وخبرائها فذاك إنباءٌ بأنّها على الطريق القويم. إذْ ما قادَ العلمُ يوما أهلَه إلاّ إلى المراقي. وحين تكون جماعات العلماء ومؤسّساتهم مشهدا مألوفا وأصيلا في تعدّديّة النسيج الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ... فذاك دليل على أنّها أوسعُ من المخابر الضيّقة ومن الأبراج العاجيّة الهاربة من زحمة الحياة. إنها بذاك الحضور مكوّن من مكوّنات الحياة الديمقراطيّة العامّة. وإذْ تكون كذلك يكون احتمال تأثيرها في مسارات المجتمع والسياسة والاقتصاد... كبيرا. هذه الجماعات، بهذه المعطيات الخاطفة، تُسمّى الثينك تانكس (Think tanks).

تنويه ٣:

يقول الفرنسيّون إنّ مصطلح الـ(Think Tanks) لا يمكن ترجمته (concept intraduisible) لأسباب كثيرة سنأتي عليها في هذا البحث. ويبدو أنّ أصالة هذا المصطلح كانت وراء استخدامه كما هو في كلّ اللّغات تقريبا. ولم تستطع المحاولات الكثيرة لترجمته أنْ تستغنيَ عنه، فهي لا تذْكُر العبارةَ المُترْجَم بها إلاّ وتذكّرُ بجانبها المصطلحَ في لغته الأصليّة. وسنُجري في دراستنا المصطلحَ كما هو، يقينا منّا أنّ العربيّة وحضارةَ أهلها المعاصرة لم تعرفا بيئة شبيهة بالبيئة التي نشأ فيها هذا المصطلح.

مقدّمة:

من نافل القول الإشارة إلى أنّ الدول لا تكون صاحبةَ منعة وسلطان وثروة وجاه إنْ لم تصطنعْ لنفسها الوسائلَ والأدوات اللازمةَ لكلّ ذلك. وغيرُ خاف عن الباحثين والمتخصّصين في العلاقات الدوليّة أنّه كلّما تعدّدتْ مصادرُ قوّةِ دولة من الدول انبسطتْ لها السبلُ لتنشر سلطانها وتتحكّم في المفاصل الحيويّة لسلوك العالَم الاقتصاديّ والسياسيّ والعسكريّ والثقافيّ والعلميّ.

ولسنا نرغب في هذه الدراسة في أن نفصّل القول في جميع تلك المصادر. إنّ أغلبها معلوم، ولعلّه لا يحتاج إلى مزيد بيان. ولكنّ مصدرا منها مازال في تقديرنا غيرَ حاضر الحضورَ الضروريّ لتكتمل معالمُ الوعي بفلسفة قوّة الدول. إننا نعني على وجه التدقيق مراكزَ البحث ودورَها في إنتاج المعرفة وإسهامَها في توجيه الرأي العامّ وتوفيرِ ما يحتاج إليه صنّاع القرار من معلومات واستشارات ودراسات.

---

[1] "Nothing is more powerful than an idea whose time has come": John C. Goodman, What is a think tank?, www.ncpa.org/pub (December 20, 2005).

[2] Ibid.

[٣] نقلا عن باسكال لامي (Pascal Lamy) من مقدّمته لكتاب ستيفن بوشيه (Stephen Boucher) ومارتين رويو (Martine Royo): "الثينك تانكس: أدمغة حرب الأفكار" (Les Think tanks: cerveaux de la guerre des idées)، مطبعة Le Félin، ٢٠٠٩. وراجع في هذا المعنى مقدّمة ستيف واترز لمقالته: "الأدمغة الشرّيرة/الخطيرة" (Dangerous minds)، مجلّة الغارديان (The Guardian)، بتاريخ: ١٠ نوفمبر ٢٠٠٤. ففيها اعتراف بأنّ مراكز الفكر التي تدخل تحت باب "الثينك تانكس" قادرة على تغيير العالَم.

وليس لمراكز البحث التي تعرف اليوم انتشارا واسعا في أغلب دول العالَم النفوذُ والفاعليّة اللاّزمان لتندرج في سياق بحثنا. إنّ كثيرا منها لا يزيد عن كونه نواديَ ثقافيّةً أو مؤسّساتٍ بحثيّةً منغلقة على نفسها أو هيئاتٍ إعلاميّةً وشبهَ أكاديميّة يقع استثمارها من قِبَل كثير من أنظمة العالَم غير الديمقراطيّة لتكون سندا لها بما توفّره من دعاية سياسويّة وإيديولوجيّة تتحرّك على سطح الأحداث ولا تنغمس فيها توجيها وتعديلا.

لقد كان كثيرٌ من الدول بما فيها الديمقراطيّات الأوروبيّة تراهن على مهاراتها الذاتيّة في صناعة الرأي العامّ واستنباط ما يلزمها من حلول لمشكلاتها الآنيّة وفي القيام بمشاريعها الاستشرافيّة والإستراتيجية[٤]. وربّما كانت الأحزاب السياسيّة بما تنافِسُ به أنظمةَ الحكم توفّر هي أيضا شيئا من تلك الاحتياجات.

إنّ الدولة الوحيدة في التاريخ الحديث التي عرفت نمطا من مراكز البحث المنخرطة بقوّة في إنتاج الأفكار والمشاريع الكبرى للسياسات الاقتصاديّة والدوليّة والصحيّة والبيئيّة هي دون شكّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة. لقد كان هذا النمط من مراكز البحث بما نحت لنفسه من مواصفات خاصّة به شريكا أساسيّا (وإنْ لم يكن رسميّا) في إدارة الشأن العامّ. ولعلّه كان يتجاوز ذلك الدورَ فيكونَ، بالقدرات الهائلة التي بين يديْه، صاحبَ الشأن الأوّل حتّى في إنتاج رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكيّة. والتسمية ذاتها التي التصقَتْ به حتّى صارتْ جزءا من هويّته التي أضحى يُعرَفُ بها تعكس هي الأخرى بَعضَ ما يتميّز به من غيره من المؤسّسات: الثينك تانكس (Think Tanks)[٥].

الثينك تانكس: تعريفٌ وسياقٌ

نودّ أنْ نقدّم لهذا الجزء من دراستنا بما التقطته عين إيف دوريه (Yves Derai) في شأنِ مؤتمرٍ عقده في باريس مركزٌ بحوثٍ شاء أنْ تمرّ جلساته بعيدا عن الأضواء:

«Un jeudi de septembre, à 8h15. Dans un salon cossu d'une célèbre brasserie parisienne, à l'abri des regards indiscrets, une cinquantaine de personnes échangent poignées de main…et cartes de visite. Puis chacun s'installe à une table en fonction de ses affinités pour écouter l'exposé de Pierre Cornette…»[6]

مَنْ يتأمّل الطريقة التي عرض بها إيف دوريه مشهدَ انعقاد مؤتمرٍ لهذا النمط الجديد من المراكز البحثيّة لا يشكّ لحظة واحدة في أنّه ينحو في الظاهر على الأقلّ نحوا غير مألوف. وتتأتّى بعض غرابته الظاهرة من عنصريْن: المكان الفخم الفاره الذي ينعقد فيه الاجتماع، والحرص على أنْ تدور

---

[٤] هذا تقريبا ما صرّح به فيليب مانيير (Philippe Manière) مدير مركز مونتانيي (Institue Montaigne): "في فرنسا، ولعهد طويل، كان يُعْتَقَدُ أنّ الدولة هي وحدَها التي تعرف أين توجد المصلحة العامّة"، نقلا عن:

Pierre Lepetit, Le rôle des think tanks, revue Problèmes économiques, n° 20912, 06/12/2006.

[٥] إذا استخدمنا عبارة محمّد حسنين هيكل نقول إنّنا بدراستنا موضوع الثينك تانكس في الولايات المتّحدة الأمريكيّة نقدّم "مفتاحا" آخَر لفهم قوّة هذا البلد وطريقة عمل مؤسّساته الفاعلة. كان هيكل صاحبُ الدراية والخبرة الواسعتيْن بالشأن السياسيّ الدوليّ قد قدّم مقاربة جيّدة من أجل فهمٍ أفضلَ للولايات المتّحدة الأمريكيّة تحت عنوان رمزيّ رشيق: "مفاتيح". والمفاتيح عنده اثنا عشر. ولا شكّ في أنّ كثرتها تعود إلى تعقّد ما يمكن تسميته بـ"الظاهرة" الأمريكيّة والغموض الهائل الذي يلفّها. ونلفتُ النظر ههنا إلى أنّ موضوع دراستنا ليس مفتاحا من مفاتيح هيكل. وردت هذه المفاتيح في كتابه: الزمن الأمريكيّ من نيويورك إلى كابول، المصريّة للنشر العربيّ والدوليّ، ٢٠٠٢.

[6] Yves Derai, Think Tanks: Les nouveaux laboratoires du pouvoir, Magazine l'Optimum, n° 71, 2004, p: 103.

الأشغال بعيدا عن الأعين. إنّ عبارة: "regards indiscrets" تدلّ على أنّ هناك أطرافا غيرَ مرغوب فيها ينبغي منعها من اكتشاف أمر هذا الاجتماع أو أنّ ما سيتداوله المؤتمرون لا يصلح أن يكون موضوعا عامّا.

أمّا فخامة الإقامة فقرينةٌ تؤكّد القدرةَ الماليّة الجيّدة التي تسمح بالإنفاق المريح. وهذا يشير في ما يشير إليه إلى أنّ مصادر دعمٍ وتمويلٍ قويّةً تقف وراء التئام هذا المؤتمر. وأمّا الحرص على إجراء أعمال المؤتمر في الكتمان فيشير في ما يشير إليه إلى أنّ القضايا التي سيتناولها والتوصياتِ التي سيخرج بها والجهاتِ المستفيدةَ منه لا تبيح له أن يكون في خانة المؤتمرات العامّة المفتوحة للجميع كما تجري العادة. فهذا حدثٌ، حسَبَ طريقة تصويره، غيرُ معتاد وقوعُه في باريس. إنّ لباريسَ عوائدَها الثقافيّةَ العريقة التي من أشدّها لعانًا ما يُعْرَف بالصالونات الثقافيّة تلك التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر. وقد تكون "نوادي الفكر"(clubs de réflexion) التطوّرَ التاريخيّ والطبيعيّ لها. فما يعرضه إيف دوريه إذن أمرٌ جديد. ولو لم يكن كذلك لَما توقّف عنده. فما أكثرَ ما في أحشاء باريس من أنشطة وفلاسفة ومثقّفين وجامعيّين ومطبوعات ودور نشر. إنّ أبرزَ ما نحتفظ به ممّا ساقه أمران: التمويلُ والجهةُ المستفيدة من المؤتمر. فهما علامتان أساسيّتان من العلامات التي تدخل في تعريف الثينك تانك. وهذا موضوع سنعود إليه.

قبل الشروع في الإحالة على ما تعنيه هذه التسمية مُعجَما ودلالة، نذكُر أنّ عمليّاتِ ترجمةِ هذه العبارة المركّبة من مفردتيْن متلازمتيْن إلى حدّ التوحّد (Think) و(Tank) إلى غير لغة المنشأ لم تكن قادرة، بشهادة المترجمين أنفسهم، على استيعاب كثافتها الدلاليّة وخلفيّاتها التاريخيّة. وربّما ساق عُسْر الترجمة كثيرا من الدارسين إلى الاعتراف باستحالة استنباط مقابل لغويّ يكون أمينا في تأدية تلك الكثافة الدلاليّة والتاريخيّة[٧]. وليس عجيبا، والأمر هكذا، أنْ نجد ميلا يكاد أن يصير في مرتبة الإجماع عند المهتمّين بهذه المسألة إلى أنّ الثينك تانكس صناعة أمريكيّة لا تقبل التقليد[٨]. ونستطيع أن نلمس في كثير ممّا نطالع ونحن نبحث عن كيفيّات التعامل مع هذا الوافد الغريب عن تقاليد البحث المؤسّسيّ الفرنسيّ مثلا نوعا من القلق أو الشعور بعدم الرضى عن المتاح من التعريفات. فقد قدّم إيف دوريه (Yves Derai) لمقال له عنوانه: المَختبرات الجديدة للسلطة (Les nouveaux laboratoires du pouvoir) كما يلي: "إنّ الثينك تانكس أو مستودعات الفكر المستوردة من أمريكا تفرض نفسها اليوم في باريس. فلا هي لوبيّات (lobbies) بأتمّ معنى الكلمة ولا

---

[٧] نعت Xavier Carpentier-Tanguy عبارة الثينك تانكس بصفتيْن: plastique et intraduisible فإذا كان النعت plastique يفيد التمطّط أي عدم الثبات على حالة واحدة وبالتالي استحالة استقرار معناه، فالنعت الثاني intraduisible يزيد الأمر تعقيدا، ممّا يُكسب هذه العبارة وضعا لغويّا ودلاليّا خاصّا جدّا لا يمكن أنْ يُدرَكَ إلاّ في السياقات التي نشأ فيها. ومن هنا كان ذهابنا إلى أنّ عبارة الثينك تانكس إنْ لم تكن موغلة في المحلّيّة إلى أقصى حدّ، فهي بمحمولاتها الدلاليّة ذات هويّة بنائيّة مغلقة تستعصي على التقاطع مع مصطلحات تلوح كأنّها من جنسها مثلما سنبيّن لاحقا. عن تلكما الصفتيْن، راجع مقال Xavier Tanquy:

Diplomatie intellectuelle: les Think Tanks comme acteurs de l'européanisation de la France, revue Etudes européennes (*www.etudes-europeennes.eu).* Article mise en ligne le 15/04/2010. p: 2.

وفي هذا الإطار نقع على كثير من العبارات الدالة على الغموض الذي يلفّ هذا المصطلح. ومن ذلك:

« … l'expression anglo-saxonne think tank conserve en France un caractère obscur ».

من مقال عنوانه: Think Tanks: un concept made in USA راجع ذلك في الموقع الالكتروني:

www.journaldunet.com/management.

[٨] كثيرا ما نجد التعبير التالي في كتابات هؤلاء: made in U.S.A. ويُفهَم في هذا السياق خلوّ المعاجم غير الانجليزيّة من تداول تلك العبارة:

« Le terme Think Tank ne se trouve à ce jour que dans des dictionnaires américaines » مقال Xavier Carpentier-Tanguy بعنوان: Les think tanks:origine et perspectives مأخوذ من الموقع الإلكترونيّ: www.nonfiction.fr. (٢٠٠٨/٠٢/٢٢).

هي كذلك نوادٍ للتفكير...إنها جماعات تأثير متعدّدة ومتنوّعة"[٩]. وغير بعيد عن هذا التردّد في ضبط تعريف جامع مانع يقدّم باسكال لاميه هذه المراكز باعتبارها في نفس الوقت نصفَ نوادٍ سياسيّة ونصفَ مؤسّسات بحثيّة أكاديميّة[١٠].

وحين نتأمّل المقترحات التي جيء بها ترجمةً لهذه العبارة نستطيع أنْ نجعلها في جدوليْن: جدولٍ ضَمَّ الترجمات التي هي أقرب ما تكون إلى المحاكاة اللفظيّة للعبارة الأصليّة. وأشهرُ ما ذاع منها: réservoir de pensée, boite à pensées, boites à idées وجدول ثانٍ ضمّ ترجماتٍ عمدتْ إلى استحضار الطابع المؤسّسيَ والأكاديميّ لفِرَق البحث المعروفة في بقاع كثيرة من العالَم ليصبح التعريف مستوحيا قيمته ممّا ليس في المعرَّف به حصرًا. وأشهر ما ذاع منها: groupe d'experts, centre de réflexion, espace de réflexion, laboratoire d'idée. وسواءً أتعلّقت الترجمة بالجدول الأوّل أم تعلّقت بالثاني، لا ريبَ في أنّ هناك اقتحامًا لميدان يبدو أنّه نشأ في سياق خاصّ به وظلّ محافظا على تلك الخصوصيّة. فالترجمات التي شكّلتْ الجدول الأوّل تلوح بلا معنًى لأنّ عبارة صندوق/علبة (boite) أو عبارة خزّان (réservoir) غير مستخدمَتيْن في عالَم الأفكار الأوروبّي وفي المعجَم الثقافيّ والأكاديميّ المتداوَل، ولذلك تبدوان حين تدخلان في نسيج اللغة الفرنسيّة مثلا غريبتيْن عنها. والترجمات التي شكّلت الجدولَ الثاني لا خلاف حول كونها ذهبتْ مذهبا عكسيًا وقد ساقتْ المعنًى المتسع والمتداول الذي في تلك المقترحات مثل (centre de réflexion) لتعبّر به عن فكرة يبدو أنّها لا تتوفّر إلاّ على معنًى ضيّق الدلالة مضبوط المقصد إنْ وُضِعَ خارجَه ضاع. ولذلك كان لا بدّ من الوعي بضرورة استحضار السياق الملازم للعبارة المترجَمَة. فهو وحدَه الذي يسلّط الأضواء على نشأة الظاهرة وتطوّرها وعلى الملابسات الحافّة بها.

ونشير في هذا الصدد إلى أنّنا لاحظنا نوعا من الإهمال الذي لا نراه إلاّ مُتعمَّدا لِمقابلٍ حَرْفيّ مِن المقابلات المكنة لكلمة tank الانجليزيّة. لقد استحضر المترجمون كلماتٍ أبرزها: citerne- bouteille- contenant- réservoir وهي، في العموم، ذاتُ محمول دلاليّ واحد باعتبارها تحيل على الإناء المُعَدّ لنقل السوائل ونحوها من جهة الدلالة المباشرة، وعلى الفضاء المادّي أو الرمزيّ الذي تتأطّر داخله عمليّاتُ التفكير من جهة ما يمكن تسميته بالدلالة الاستعاريّة.

إنّ ممّا تترجَم به كلمة tank الانجليزيّة كلمة char الفرنسيّة التي من معانيها معنًى حربيٌّ وهو: الدبّابة (المجنزرة). واللافت أنّنا نجد في اللغة الفرنسيّة كلمة tank التي من معانيها الدبّابة أيضا. أي يمكن أن نترجم كلمة tank الانجليزية بكلمة tank الفرنسيّة. لكنّ الانصرافَ عنها إلى غيرها لا يبرّره في اعتقادنا إلاّ عدمُ الاقتناع بوجود صلة مباشرة في الثقافات الأوروبيّة عامّة وفي الثقافة الفرنسيّة خاصّة بين الفعل فكّر (penser) والدبّابة (char/tank). فما قدّرنا إذن أنّه إهمالٌ متعمَّدٌ لكلمة char يزيد من تكثيف الغموض الذي يلفّ عبارة think tanks من ناحية، ويؤكّد خصوصيّةَ دلالتها وسياقِها الأمريكيّيْن من ناحية ثانية[١١]. وإذا رمنا مزيدَ تدقيق في معنى الخصوصيّة

---

[9] Yves Derai, Les nouveaux laboratoires du pouvoir, p: 103.

[١٠] جاء ذلك في مقدّمته التي وضعها لكتاب كلّ من ستيفان بوشيه (Stephen Boucher) ومارتين رويو (Martine Royo): الثينك تانكس.. أدمغة حرب الأفكار (Les Think tanks: cerveaux de la guerre des idées)، مرجع سابق.

[١١] إشارتنا إلى إهمال استحضار كلمة char ترجمة لكلمة tank لا تعني أنّه لا يوجد من الدارسين من لفتَ إليها النظر. فمن الذين نبّهوا إلى ذلك ألان فوبان(Alain Faupin) في دراسته:

La pensée au service de l'action: les think tanks américains

لكنّه لم يستحضرها مدافعا عنها. لقد قدّم عليها الترجمة الحرفيّة المباشرة:

« Un tank est avant tout un réservoir, un contenant ou un volume offert ».

ويضيف تصوّرا لا ينسبه إلى نفسه مفاده إمكان الربط بين المعنى الأوّل وفكرة القوّة التي في كلمة char الفرنسيّة:

قلنا: جاء هذا المركّب المعجميّ بمحمول دلاليّ عسكريّ أثناء الحرب العالميّة الثانية ليعبّر عن مشهدِ الخبراء والعلماء الأمريكيّين وهم داخل الأليّات الحربيّة (tank/char) يقدّمون المشورة لقادة الجيش ويساعدون في المهامّ اللّوجستيّة والإستراتيجيّة حتى لكأنّ وقود المجنزرة صار يأتيها من عقول العلماء الذين في "بطنها"[١٢].

ويبدو أنّ المحاولاتِ الأولى تلك التي أُريدَ لها أنْ تعطيَ لمراكز الفكر العاملة في بعض قطاعات أوروبّا مواصفات الثينك تانكس الأمريكيّة لم تكن على الأرجح ناجحة في تحويلها التحويلَ النوعيّ الذي تصبح به ناهضة بالمهامّ التي تنجزها الثينك تانكس.

لا شكّ في أنّه يوجد في بلدان أوروبيّة غربيّة مراكزُ بحث كثيرة نشأت في إطار التزاماتٍ انعقد عليها وجودُها وفي ظلّ تشريعات نظّمت نشاطَها[١٣]. لكنّ الذي قصدنا إليه من الملاحظة السابقة هو أنّ الرغبة في إدخال تلك المراكز تحت عنوان الثينك تانكس هي التي كانت واقعة تحت إغراء التسمية ومتجاوزةً الخصوصيّة التي كنّا نذكر. فتغيير التسمية لا يكفي وحده للانخراط في ما تنخرط فيه الثينك تانكس. وحتى المراكز التي أُنشِئتْ بعد اجتلاب تلك التسمية يبدو أنّها لم تفلح في أن تكون ثينك تانكس محلّيّة الصنع بالعلامة "التجاريّة" الرمزيّة التي أشرنا إليها في ما تقدّم (made in)[١٤] من جهة، وذاتَ تأثير قويّ عالميًا من جهة أخرى. وتلك هي المفارقة التي نلمسها بين ازدياد الطلب

« Certains pourraient vouloir y associer l'idée de puissance jusqu'à adopter l'acception technico-opérationnelle du terme que l'on retrouve dans *main battle tank*, un char de combat ».

ويُبدي ألان فوبان موافقة تصوّرناها "باردة" على هذا الربط بين القوّة وإناء الحمل المجازيّ مستنبطا معنى القوّة لا من كلمةtank وإنّما ممّا تحتمله كلمة think (penser) من إمكان صرفها إلى ممارسة نوع من أنواع السلطة:

« Il n'est pas faux, pour autant, de penser que ces officines, dont la vocation est de penser (think), exercent un pouvoir et participent efficacement à l'élaboration de concepts, de doctrines, de stratégies et de politiques dans de nombreux domaines ».

راجع ذلك في:

Revue internationale et stratégique, n° 52, hiver 2003-2004, p: 97.

[١٢] استوحيْنا هذا التعبير التشبيهيّ من الصورة الكاريكاتوريّة التي تصدّرت دراسة توماس مدفيتز (Thomas Medvetz): "الثينك تانكس في الولايات المتّحدة الأمريكيّة":

Les think tanks aux Etats-Unis: l'émergence d'un sous-espace de production des savoirs, traduit de l'anglais par: Camille Joseph, in Actes de la recherche en sciences sociales, n° 174.

جاء الرسم تحت عنوان: George Bush's Iraq think tanks، ولمزيد التوسّع في هذه الخصوصيّة يمكن العودة إلى:

Jean-Loup Samaan, L'origine militaire des think tanks: le cas américain, in revue Chantiers politiques, n° 5, printemps 2007.

[١٣] من البلدان التي عرفتْ موجة ثينك ثانكس في السنوات الأخيرة (بعد تسعينات القرن العشرين) فرنسا. وقد استلطفنا الصياغة التي عبّر بها إيف دوريه (Yves Derai) عن "اجتياح" هذا النمط الجديد من المراكز البحثيّة لمجالات لم تكن في أولويّات مراكز البحث الفرنسيّة التقليديّة:

« Les think tanks sont entrés dans Paris, massivement, et ils s'attaquent à tous les thèmes sur lesquels nous avons toujours eu une gamberge de retard ».

من مقاله: Les nouveaux laboratoires du pouvoir المنشور في مجلّة L'Optimum مرجع سابق، ص:١٠٣.

[١٤] وممّا نقرأ في هذا السياق:

« Jusqu'à très récemment les think tanks établis dans d'autres pays étaient généralement considérés comme de simples copies des principaux grands instituts américains »,

لإنشاء هذه المراكز من ناحية، وعدم ارتقاء فعلها إلى مستوى الثينك تانكس الأمريكيّة من ناحية ثانية. إنّ مشهد الغزو والهجوم على كلّ الميادين ذاك الذي عرضه إيف دوريه (Yves Derai)، لئن كان يعلن في الظاهر عمّا أسميناه ازدياد الطلب على الثينك تانكس إلاّ أنّه لا يضمن جودة المعروض.

ففي دراسة تهدف إلى تصنيف مراكز البحث التي تتسمّى باسم الثينك تانكس[١٥] لاحظنا أنّ عددا كبيرا من ذاك الذي غزا باريس (Les think tanks sont entrés dans Paris massivement) لم يستطع أن يبرهن عن استحقاقه ذاك الاسم وما يترتّب عنه من التزامات. لقد أحصت الدراسة ٥٤٦٥ مركزا بحثيّا، ورأتْ أنّ ٤٠٧ منها فقط يمكن أن تكون الأكثر تأثيرا في صنع الواقع العالميّ. وذهبت إلى أنّ نصيب المؤسّسات الفرنسيّة من هذا الرقم لا يتعدى تسعًا (٠٩)[١٦]. وأمّا العشرة الأوائل عالميّا فلفرنسا فيها مركز يتيم. وفي نبرة تجمع بين المرارة والسخرية على هذا التمثيل الهزيل يكتب جون جيزنال (Jean Guisnel) "في العشرة الأوائل للثينك تانكس المتخصّصة في العلاقات الدوليّة، ينقذ المعهد الفرنسيّ للعلاقات الدوليّة (Ifri) شرف فرنسا. ولكنْ، للحقيقة، لقد كان في الرتبة العاشرة"[١٧]. ومعنى هذا إنّ الكثرة العدديّة ليست دليلا على كون البلد الذي تنمو فيه على عَجَلٍ مثلُ هذه المؤسّسات يقدّم شهادةً على نجاحه في الدخول إلى ما يمكن أن نسمّيه عصر الثينك تانكس. فالتقرير: The global go-to Think Tanks لئن جاء راصدا تطوّرَ هذا النمط من المراكز البحثيّة في العالَم وتصنيفَها بحسَب قوّة أدائها أو ضعفه، يصلح وثيقةً جيّدة لتمييز ما هو من الثينك تانكس ممّا ما ليس منها[١٨].

من مقال: Les think tanks: origine et perspectives مرجع سابق. ويستخدم ديان ستون (Diane Stones) نعتا تهجينيّا (باهتة- pale) لكلمة "نُسَخ" التي في جملة Derai السابقة تتحوّل بمقتضاه هذه "النُّسَخ" إلى مؤسّسات عديمة الفائدة:

« Jusqu'à une période très récente, les think tanks fondés dans d'autres pays n'étaient considérés que comme de pales copies ».

نقلا عن Xavier Carpentier-Tanguy من مقاله:

Influences et innovations politiques: les think tanks (perspective historique)، ضمن المجلّة الالكترونيّة: Etudes Européennes بتاريخ ٢٠٠٦/٠٣/٣٠، ص: ١٠.

وهذا لا يعني أنّ مراكز البحث التقليديّة حافظت على صمودها. لقد كانت تتراجع باستمرار وإن ببطْء لتترك أماكنها لهذا النمط الجديد من المراكز البحثيّة. هكذا عبّر إيف دوريه عن مشهد أفول القديم وسطوع نجم الجديد:

« les réservoirs à pensée prennent doucement la place des bons vieux clubs de papa »

[١٥] جاءت هذه الدراسة تحت عنوان: The Global Go-To Think Tanks وهي تتألف من ٥٣ صفحة وأشرف على إعدادها جيمس ماك جان (James G. McGann) مدير برنامج: الثينك تانكس والمجتمعات المدنيّة (Think tanks and civil societies) بجامعة بنسلفانيا الأمريكيّة. وشمل الإحصاء ١٧٠ بلدا وتجدّد لإنجازه عدد ضخم من الباحثين. ويُعتَبَرُ هذا التصنيف من أشهر التصنيفات المعتمَدَة في هذا الشأن، وهو الثاني الذي يقوم به مدير برنامج الثينك تانكس والمجتمعات المدنيّة. صدر هذا التقرير سنة ٢٠٠٨. ويمكن مراجعته في الموقع الالكترونيّ لمجلّة: السياسة الخارجيّة (Foreign Policy).

[16] Le CEAN (Centre d'étude sur l'Afrique noire), l'IES (Institut d'études de sécurité de l'Union européenne), la FRS (Fondation pour la recherche scientifique), l'IFRI (Centre français des relations internationales), le CEPII (Centre d'étude et de recherche en économie internationale), l'Iris (Institut des relations internationales et stratégiques), l'IES (Institute for economic studies Europe), l'Institut Montaigne, et la Fondation pour l'innovation politique.

[١٧] راجع ذلك في مقاله:

Les think tanks français massacrés dans un classement américains, Le Point.fr, 21/02/2009.

[١٨] رغم عمليّات الغربلة التي يقتضيها التصنيف، بدا العدد الضخم للثينك تانكس في العالم كأنّه مبالَغٌ فيه، خاصّة إذا وضعنا في الاعتبار الشروط والسياقات التي احتضنتْ نشأة الثينك تانكس الأمريكيّة. إنّ كثيرا من المراكز التي أوردها التقرير لا ينطبق عليها اسم الثينك تانك كما سنفصّل ذلك لاحقا.

إنّ عمليّة الغربلة التي سقطتْ بسببها مراكزُ كثيرة أو تقهقرت مراتبها في الترتيب مفسحةً المجال للأجدر كما بيّن البرنامج المذكور، وجدتْ لها الجهاتُ التي تتابعُ النشاطَ البحثيّ الفرنسيّ تفسيرا نراه يتقاطع مع ما قدّمناه سابقا: تذكر مجلّة Le Point.fr أنّها اطّلعتْ على تقرير وجّهه مركز التحليل والتوقّع (Centre d'analyse et de prévision) لوزارة الشؤون الخارجيّة ينحو فيه باللائمة، وفي عبارات قاسية، على مراكز البحث الفرنسيّة لأنّها لم تستطع أن تنجز المطلوب منها في ظلّ متطلّبات زمن الثينك تانكس. لقد بقيتْ تعمل في حدود المحليّة وبعيدا عن إنتاج مقاربات جريئة وجديدة وفعّالة[١٩].

هكذا إذن يمكن الذهاب في شيء من الاطمئنان إلى أنّ الثينك تانكس وإنْ بدأت تتسرّبُ بنسق متسارع إلى جهات كثيرة في العالَم، فإنّ الجدل حول ماهيتها والأدوار التي تؤديها أو يُفترَض أنْ تقوم بها يشير إلى أنّ شيئا مَا ما زال يحتاج إلى تعميق النظر فيها عسى تخرج الثينك تانكس من محلّيتها الأمريكيّة أوّلا، وعسى تتحولّ مراكز البحث التقليديّة خارج المجال الأمريكيّ إلى مُنشَآتٍ فعّالة وذات وظائف رياديّة في إنتاج مسارات للعالَم يتحرّك فيها صنّاع القرار الدوليّون ثانيا.

ولكنْ، ما تكون على وجه التحديد الثينك تانكس تلك التي رأينا الكمّ الهائل من الغموض الذي يلفّها فيبقيها دوما في دائرة الجدل؟ وهل يمكن حقّا، وقد ألححنا على محلّيتها، أنْ يكون لها نظائرُ في العالَم؟ وليست النظائر التي نعني نُسخا مُعادَة منها تكتفي بالاسم إغراءً وتشبّها؟ هذه الأسئلة تدعونا إلى القيام ببحث في تاريخيّة الثينك تانكس نشأة واصطلاحا وسياقا ووظيفة.

الثينك تانكس: جدل الفكر والقوّة

يبدو أنّ عبارة ثينك تانك (think tank) عرفتْ طريقها إلى التداول في نهايات القرن التاسعَ عشر. ولكنّها لم تكن حينئذ متمحّضة للمعاني التي نحن بصددها في هذا المقال. كانت تُستخْدم في بعض الروايات والإعلانات الإشهاريّة والمقالات الصحفيّة بدءا من سنة ١٨٩٠ استخداما واحدا إلى حدود سنة ١٩٦٠[٢٠]. ويبدو كذلك أنّ المعنى الغالب عليه كان الاستخدام الساخر كما جاء في مقالة نشرتها مجلّة نيويورك تايمز(New York Times) سنة ١٨٩٨[٢١].

للبحث في التطوّرات التي رافقت دلالات الثينك تانك نرى من المناسب أنْ نقوم بعرض سريع لأبرز المحطّات التي مرتّ بها الولايات المتّحدة الأمريكيّة من أواخر القرن التاسع عشر إلى انتهاء الحرب العالميّة الثانية. وإذ نقوم بهذا، نؤكّد الرأيَ الذي ذهبنا إليه منذ أنْ صُغْنا عنوان هذا المقال. فقد كان ثمّة على الدوام صلات تفاعليّة ظاهرة أو خفيّة بين التحوّلات التي شهدتها الولايات المتّحدة في الفترة التي حدّدْنا وجماعات الفكر ومراكز التأثير في السياسات العامّة.

---

[١٩] ممّا جاء في المذكّرة:

« Le risque est que, dans la mesure où nombre de ces organismes ne proposent pas d'alternative nouvelle aux idées que formulent les experts de l'administration, ils perdent de leur pertinence et leur plus-value intellectuelle sur le marché mondial des idées ne soit pas suffisamment reconnue », ibid.

[٢٠] نقلا عن:

Thomas Medvetz, Les think tanks aux Etats-Unis: l'émergence d'un sous-espace de production des savoirs, Actes de la recherche en sciences sociales, n° 174, p: 81.

[٢١] يشير موضوع الاستخدام إلى أنّ متشرّدا ارتكب جريمة وأثناء استنطاقه عبّر عن خطئه كما يلي:

« M'sieur l'agent… Ma boite à idées <think tank> est détraquée » نيويورك تايمز، ١٨ ديسمبر ١٨٩٨. كان يقصد أنّ ما قام به كان بفعل فساد عقله الذي لم يهده إلى الصواب ولكنْ في عبارة تشير إلى الدماغ أكثر من إشارتها إلى العقل.

تنزع الدراسات المهتمّة بمراقبة حيويّة هذه العبارة وتحوّلاتها من معنى إلى آخَر بحسَب ما يستجدّ من أحداث إلى اعتبار الحرب الأهليّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة (١٨٦١- ١٨٦٥) المعروفة باسم حرب الانفصال (la guerre de Sécession) كأنّها الرحم الأول الذي سيتشكّل فيه شيئا فشيئا الثينك تانك مصطلحا له دلالته الخاصّة به. فالمخاطر الكبرى التي كانت تهدّد وحدة الولايات المتّحدة الأمريكيّة بإعلان أكثر من ولاية جنوبيّة انفصالها عن ولايات الشمال، وقرارُ السلطة المركزيّة إنشاءَ قوّة عسكريّة لمقاومة التمرّد أدّيا إلى الوقوع في مأزق تاريخيّ وسياسيّ وقيميّ كبير[٢٢]. وكانت الحربُ في برنامج الشماليّين المتحمّسين للوحدة السبيلَ الوحيدة لِلَجْم تطلّعات الجنوبيّين. وكانت سنوات الحرب الأربعُ كافيةً لإحداث تمزّقات كبرى في النسيج الاجتماعيّ للمجموع البشريّ في الولايات المتحدة الأمريكيّة. وكان الركود الاقتصاديّ ثمرة مباشرة للأرض المحترقة بنار الحرب في الجنوب.

كيف يمكن تجاوز الآثار المدمّرة لحرب الانفصال؟ سؤال لا شكّ في أنّه يخفي شبكة واسعة من الأسئلة الثاوية خلفه. ونشأ في هذه الظروف على هامش التدابير والإجراءات التي تنفّذها الطبقة السياسيّة والبيروقراطيّة اجتهاداتٌ وقُدِّمتْ اقتراحاتٌ من جهات مستقلّة ترى الانخراط في البحث عن الحلول مسؤوليّةً وطنيّة. ويغلب على المباشرين في ذاك البحث الانتماءُ إلى هيآت علميّة وأكاديميّة عالية التكوين وإلى كفاءات وخِبْراتٍ من مؤسّسات اقتصاديّة وسياسيّة وقانونيّة وغيرها. وقد يلتقي هؤلاء وهم يدرسون المشاكل التي تنادَوْا لحلّها في ورشات بحث ومراكز تفكير تنظيما لنشاطهم وتمييزا لأنفسهم من أطراف تنخرط في ما هم فيه منخرطون. إنّها البدايات لبروز الثينك تانك[٢٣].

وفي ولايات الشمال التي لم تعرف الخراب الذي عاشه الجنوب كان ثمّة اتجاهٌ متسارع نحو بناء اقتصاد قويّ: حركة تصنيع بوتيرة مرتفعة ونشاط فلاحي بمردوديّة عالية وحركة هجرة واسعة

---

[٢٢] كان النضال من أجل إلغاء الرقّ عاملا مركزيّا في إعلان الانفصال. والنضال في هذا الميدان عرفته بريطانيا قبل أنْ تعرفه الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وكان توماس كلاركسن (١٧٦٠- ١٨٤٥) (Thomas Clarkson) أبرز المدافعين عن إلغاء الرقّ. وذهبت بعض الدراسات، بسبب انخراط كلاركسن القويّ في هذه المعركة وحشده لجماعات ضغط من أوساط سياسيّة ودينيّة ونشْره لكتابات كثيرة في الموضوع، إلى أنّ أوّل ثينك تانك في العالم نشأ في بريطانيا. وكانت المؤسّسة المجسّدة له أعلنَتْ عن وجودها يوم ٢٢ ماي ١٧٨٧ تحت اسم:

"Commitee for the Abolition of the African Slave Trade".

وللتوسّع في هذه المقاربة يمكن العودةُ إلى:

Lawrence W. Reed, Ideas and consequences: a student's essay that changed the word, in www.thefreemanonline.org. vol. 55, issue 4, May 2005.

[٢٣] حول علاقة مراكز الفكر (الثينك تانكس) بالأزمات يُراجَعُ كتاب ستيفن بوشيه ومارتين رويو:

Les think tanks: cerveaux de la guerre des idées.

مرجع سابق، أُنظر الفصل الثالث تحديدا:

Les think tanks naissent sur les décombres des crises.

ومن المدافعين عن الرأي القائل إنّ مراكز الفكر الأولى جاءت في أعقاب حرب الانفصال: جيمس سميث (James Allen Smith) في كتابه:

The Idea Brokers: Think Tanks and the rise of the new policy elite, New York, Maxwell Macmillan International, 1991.

ومن المؤسّسات التي لمع اسمها في أعقاب حرب الانفصال:

- The U.S. Industrial Commisson(1892).
- The National Civic Federation (1900).
- The New York Bureau of Municipal Research (1906).
- The Russell Sage Foundation (1907).

ولمزيد التوسّع في تتبّع نشأة الثينك تانكس يمكن العودة إلى جيمس ماك جان (James G. McGann) في كتابه:

Think tanks and policy advice in the United States: academics, advisors and advocates.

انظر تحديدا الفصل الثاني الموسوم بـ: History of think tanks in the United States

تعطي بسخاء اليدَ العاملة التي يُحتاج إليها[٢٤]. وسيواكب هذا النسقَ الاقتصاديّ نزوع إلى مزيد مراكمة أرباحه عبر عمليّات اتحاديّة بين الشركات والمؤسسّات التي تسيطر على الإنتاج والمال. وسيظهر سلوك احتكاريّ للأنشطة الكبرى. كلّ ذلك يحتاج لا فقط إلى تشريعات ليبراليّة ورأسماليّة وإنما إلى عقل وعلم يسهران على نجاح هذا الاتجاه من ناحية وعلى جعله مقبولا بين الناس من ناحية ثانية. ولا يكون ذلك مقبولا إلاّ إذا كان جزءا من الثقافة. والجهة التي تستطيع أن تحقّق ذلك هي التي سيُطلَق عليها لاحقا اسم الثينك تانك. فكان يلزم إذن حتى تعُودَ الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى وحدتها الجغرافيّة أوّلا، وحتى تنخرط في نسق الحياة الليبراليّة والرأسماليّة ثانيا أنْ يكون لها طبقةٌ من العلماء والمثقّفين المُهَيَّئين للدخول في هياكل تنظيميّة والمستعدّين لإنتاج غطاء علميّ وثقافيّ يشرّع أو يبرّر حركة الدولة الاتحاديّة واقتصادَها نحو المقاصد المرسومة. ولا بدّ من الإشارة ههنا إلى أنّ ذلك سيترافق مع ظهور العلوم الاجتماعيّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة. وهذا أمر مهمّ لأنّه يوفّر مادّة جيّدة لِمَنْ يروم البحث لا في ظروف ظهور الثينك تانكس فقط وإنما في ملابسات تشكّل العلوم الاجتماعيّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة[٢٥].

لقد فسّر الدارسون التلازم بين انبثاق الدراسات في مجال ما يمكن تسميته بسياسة إدارة الدولة (politique gouvernementale) والعلوم الاجتماعيّة بحاجة دوائر الاقتصاد والمتعاملين معها وفي ظلّ التطوّر الصناعيّ الهائل المصحوب بامتعاض الطبقات الاجتماعيّة المتضرّرة إلى إنتاج معرفة يُتوقَّعُ لها أنْ تضع حدّا للاحتجاجات التي ذكرنا ولكن في إطار تحقيق هدف أسمى من ذلك وأوسع وهو إنتاج إيديولوجيا وطنيّة.

أنتجتْ الرأسماليّة الأمريكيّة أزماتها الخاصّة بها (أشدّها بروزا: ١٨٧٣- ١٨٨٤- ١٩٠٧). وكانت حادّة وعميقة. فقد زعزعت ثقة جمهور من الناس في صواب الاتجاهات الاجتماعيّة والاقتصاديّة. وبدأت الإضرابات والاعتصامات تشلّ كثيرا من القطاعات الحيويّة وتنذر بانهيارها[٢٦]. وساقتِ الأزمات المتتالية إلى نشأة نقابات عمّاليّة قويّة تزعّمت حركات الاحتجاج ووضعتْ الثقة بين عالَميْ المال والشغل في خطر داهم. وكان لابدّ من سياسةِ إنقاذٍ متعدّدة المداخل. وكان نشاط جماعات الفكر واحدا من منها[٢٧].

كانت أمريكا معروفة باتباع سياسةٍ انعزاليّة (attitude isolationniste) ثبقيها بعيدة عن التدخّل في شؤون العالَم الخارجيّ[٢٨]، ولكنّ القوّة الماليّة التي راكمتها من جهة ورغبة بعض قادتها في مدّ البصر خارج المدار المعتاد من جهة ثانية سرّعا القيام بإجراءات تأسيسيّة في اتجاه الانطلاق نحو العالَم الفسيح: اشترى الأمريكيّون الألسكا (Alaska) من الاتحاد السوفييتيّ (١٨٦٧) واستولَوا على كلّ إرث الإمبراطوريّة الإسبانيّة عقِبَ خسارتها المدوّية (١٨٩٨) ضدّ هذه القوّة الأمريكيّة الشابّة والمتحفّزة للانطلاق[٢٩]. وأغرى الانتصارُ بالتمدّد إلى جهة أمريكا الوسطى (l'Amérique centrale) وإلى

---

[٢٤] يُذكَر أنّ أعداد المهاجرين في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت تتراوح في السنة الواحدة بين ٨٠٠٠٠٠ ومليون مهاجر.

[٢٥] تناول جيمس سميث (James Allen Smith) هذه المسألة بالتفصيل في كتابه:
Think Tanks and the rise of the new policy elite.
مرجع سابق.

[٢٦] يُذْكَرُ أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة عرفت بين سنتيْ ١٨٨٦ و١٨٨٧ حواليْ ٣٠٠٠إضراب.

[٢٧] كانت العلاقة بين مؤسّسات الفكر التي ذكرنا بعضها وأصحاب القرار السياسيّ متينة. فالمركز المعروف بـ: The National Civic Federation كان على سبيل المثال يحصل على تمويل أنشطته من الرئيس الأمريكيّ وليام ماك كينلاي (William McKinley). وكانت التقارير التي يُعدّها هذا المركز تُعْرَض على الرئيس والكونغرس.

[٢٨] كان الأمريكيّون بفعل السياسة الانعزاليّة التي يَحيوْن لا يرون الحرب العالميّة حربا عالميّة حقّا. كانت بالنسبة إليهم حرب مَنْ أشعلها ومَنْ دارتْ في أرضه. إنّها عندهم حربا أوروبيّة (European War).

[٢٩] استولى الأمريكيّون مثلا على الفلبّين ووضعوا كوبا تحت حمايتهم المباشرة.

بسط النفوذ في المحيط الهادئ. ولا يعدم المتابع ملاحظةَ بداياتِ تدخّلٍ وإنْ كان محتشما في قضايا غير محلّيّة[٣٠]. إنه مجرّد تبشير بأدوار دوليّة أكبر في المستقبل.

هذا النزوع إلى الخروج من الحدود الضيّقة إلى لعب أدوار في المجال الخارجيّ للولايات المتّحدة لا يمكنه أنْ يكون دون تحفيز من منظمّات الفكر والرأي وأصحاب المصالح. لذلك يمكن القول إنّ التحوّلات التي رأيناها تعتمل في مختلف أوجه الحياة في الولايات المتحدة الأمريكيّة كانت تتغذّى بطريقة أو أخرى ممّا تعرضه تلك المنظّمات والهيآت على أصحاب القرار. ولكنْ، يجب التنويه بأنّنا مازلنا إلى حدّ الآن لم نشهد الولادة الفعليّة للثينك تانكس. إنّ هناك حراكا دؤوبا يسبق الإعلان عنهم. وليست تلك الإسهامات التي أشرنا إليها في توجيه مسارات الحياة الاقتصاديّة والسياسيّة والتشريعيّة والقيميّة إلاّ الإرهاصات التي تسبق الحدث.

تعتبَر الحرب العالميّة الأولى الطورَ التاريخيّ التدشينيّ الذي ستدخل فيه الولايات المتّحدة الأمريكيّة المجال الخارجيّ دخولا يُسهم في إعادة توزيع أدوار الدول العظمى فيه بعد أنْ تجاوزت أمريكا السياسة الانعزاليّة التي كانت تُعْرَف بها. فقد أعلنت الحربَ على ألمانيا بعد جملة من الأحداث قُتِلَ فيها مواطنون أمريكيّون وحفّزت عموم الناس إلى الثأر. وكان لها دور مركزيّ في هزيمتها وانتصار الحلفاء[٣١] سنة ١٩١٨. وأطلّتْ الولايات المتّحدة الأمريكيّة من مشهد الانتصار على قضايا العالَم وكأنّها اكتشفتْ فجأة أنّها تستطيع بعد تجربة الحرب والنصر أن يكون لها مكانٌ في العالَم. وأسرعتْ وهي في خُيَلائها إلى إعلان القيم التي تراها في صالح الشعوب. تجلّى ذلك خطاب الرئيس ولسون (Thomas. W. Wilson) الذي ألقاه يوم ١٩١٨/٠١/٠٨.

يُعْرَف خطابه هذا الذي ألقاه في الكونغرس بخطاب الأربعة عشر نقطة. والمتأمّل في محتوى تلك النقاط يلمس بوضوح نزوع السياسة الخارجيّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة إلى إرساء توجهّات جديدة تقوم أساسا على المشاركة الفعّالة في بناء ملامح عالَم ما بعد الحرب. إننا لا نجد فيها نقطةً واحدة توجّه بها الرئيس ولسن (Wilson) للداخل الأمريكيّ. فالخمسة الأولى منها عامّةٌ، فيها دعوة إلى السلام وحريّة الحركة والملاحة والتجارة الدوليّة والتشجيع على تقليص ترسانة الأسلحة. والنقاط الثماني الموالية تعْرض الرؤيةَ الأمريكيّة للنزاعات في بعض الدول الأوروبيّة والآسيويّة وكيفيّة حلّها. وتنفرد النقطة الأخيرة بالدعوة إلى إنشاء هيأة أمميّة تتولّى السهر على حماية السلام العالميّ (عصبة الأمم المتّحدة). ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الرئيس ولسن استطاع أن يسرّب كثيرا من محتوى هذه النقاط في مؤتمر فرساي (Versailles) للسلام (٢٨ جوان ١٩١٩) الذي خرج بما يُعْرَف بمعاهدة فرساي.

---

[٣٠] من ذلك: دورها الوسيط في الحرب الروسيّة اليابانيّة (١٩٠٤-١٩٠٥) ومشاركتها في مؤتمر Algésiras حول المغرب (١٩٠٦).

[٣١] أرسلتْ الولايات المتّحدة الأمريكيّة إلى فرنسا في إطار الوقوف معها ضدّ ألمانيا حملة عسكريّة كبيرة. لقد وصل عدد قوّاتها المشاركة في جيوش الحلفاء إلى مليونيْ مقاتل. ويُذْكَر أنّ الشقّ الأوروبيّ المتحالف ضدّ ألمانيا تحديدا وما يُعرَفُ بالمحور عموما بقدر ما ابتهج لهذا الدعم الأمريكيّ الهائل له، سرى فيه شعور بالقلق. فلأوّل مرّة يتحرّك فوق الأرض الأوروبيّة هذا العدد الكبير من الجنود الآتين من الآفاق البعيدة. وقد يكون ما رآه محمّد حسنين هيكل صحيحا، خلافا لِمَا كنّا بصدد الإشارة إليه، لمّا قال تعليقا على بقاء القوّات الأمريكيّة في أوروبّا بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية: "إنّ الإمبراطوريّات الأوروبيّة التقليديّة نفسها راودها خوف من انسحاب أمريكيّ يعود إلى الشاطئ الغربيّ للمحيط الأطلسيّ ويتركها وحيدة في القارّة الأوروبيّة أمام جحافل الجيوش الروسيّة التي زحفت من الشرق إلى ألمانيا في المعركة الأخيرة ضدّ هتلر" (الزمن الأمريكيّ من نيويورك إلى كابل، مرجع سابق). لكنّ المهمّ في الحالَيْن هو أنّ عصرا جديدا أطلّ على العالَم ملمحُه الأشدّ بروزا الصراع. وللصراع حَلْبَتَان فسيحتان: حلبة القوّة العسكريّة وهي مقيّدة بسبب توازن الرعب النوويّ، وحلبة الفكر وهي المتحرّرة من كلّ قيد. وللثينك تانكس الكلمة الفصل في هذه الحلبة.

هذا الاتجاه الجريء نحو كسر السياسة الانعزاليّة رغم أنّه مازال لم يلق التأييد الداخليّ المطلوب لإنجاحه[٣٢]، يشهد له الواقع التاريخيّ بأنْ لا عودةَ عنه. وغنيّ عن البيان التذكيرُ بأنّ الاتجاهَ الإمبراطوريّ والامبرياليّ الذي بدأت ملامحه تطفو على سطح الواقع لا يمكنه أنْ يُحوّلَ الدولةَ الاتحاديّة إلى دولة عظمى على المستوى العالميّ إلاّ إذا استجمعت هذه الدولةُ شروطَ القوّة اللازمة لذلك. والثينك تانكس شرط منها.

ودون الدخول في كثير من التفاصيل التاريخيّة المتعلّقة بضبط الأطوار التي مرّت بها هذه المؤسّسات، يمكن الإشارة إلى أنّ الدراسات المنشغلة بهذه المسألة اقترحتْ عمليّات تحقيب متعدّدة. فثمّة مَن يتوسّع في التجزيء إلى مقاطع تاريخيّة دقيقة وثمّة مَن يكتفي بالتنبيه إلى اللحظات الكبرى التي كان للثينك تانكس فيها ظهور جليّ. ولكنّ الراجحَ أنّ مراحلَ أربعًا متناسلةً كانت بمثابة المرصد لتاريخيّة هذه الظاهرة. وهي على النحو التالي:

- طور الولادة في ظلّ تحدّياتٍ ورهاناتٍ داخل المجتمع والمؤسّسات الأمريكيّة (حرب الانفصال ومُنتجاتها).
- طور ما بعد الحرب العالميّة الثانية وتمدّد المجال الحيويّ للولايات المتّحدة الأمريكيّة[٣٣].
- طور الحرب الباردة وصراع النفوذ وسباق التسلّح.
- طور ما بعد الحرب الباردة وبروز القطب الواحد ومستلزماته (النظام العالميّ الجديد- العولمة...)[٣٤].

هكذا حاولنا اختزالَ مساحاتٍ زمنيّةً واسعة في هذا العرض السريع مشيرين إلى أهمّ الوقائع والتطوّرات التي كانت بشكل أو بآخَرَ وراء بروز الولايات المتحدة الأمريكيّة قوّة عالميّة توسّعُ نفوذَها باستمرار وتفرض قيمها وكلّ ما تراه يساعد على مدّ سلطانها بما حبَتْها به نفسها من قوّة متعدّدة الأضلاع.

الثينك تانكس: قراءةٌ في دراسةٍ إحصائيّة

البحث الذي قام به جيمس ماك جان (James C. McGann) حول ما يمكن تسميته بجغرافيّة الثينك تانكس عبر العالَم تحت عنوان: «The Global <Go-to Think Tanks>»

---

[٣٢] الذي نعنيه هو أنّ الكونغرس لم يُمضِ على معاهدة فرساي ولم يوافق على الانضمام لعصبة الأمم. ونذكر في السياق نفسه أنّ الرئيس وارّين هاردينج (Warren Harding) لم يفز في انتخابات ١٩٢٠ إلاّ باستمالة الرافضين لمزيد تدخّل بلدهم في الشأن العالميّ وخاصّة في أوروبّا المليئة بالمشاكل.

[٣٣] الراجح أنّ هذا الطور من أشدّ الأطوار نشاطا وحيويّة. وهو في علاقة مباشرة بالطور الثالث (طور الحرب الباردة). إنّه مقدّمة مباشرة له. فالعالَم وقد اتّحد ظرفيّا لمواجهة الخطر الألمانيّ سيجد نفسه وقد فرغ من تصفية العدوّ المشترك منشطرا موضوعيّا إلى قسميْن متواجهيْن هما القسم الرأسماليّ (أو ما يُعْرَف بالعالَم الحرّ) بزعامة الولايات المتّحدة الأمريكيّة والقسم الشيوعيّ بزعامة الاتّحاد السوفييتيّ. ولا شكّ في أنّ صراع الأفكار سيجد تُربَة خصبة.

[٣٤] للتوسّع يمكن العودة إلى دونالد أبلسون (Donald E. Abelson) في مقاله: "الثينك تانكس وسياسة الولايات المتّحدة الخارجيّة: رؤية تاريخيّة: (Think Tanks and U.S. foreign policy: an historical view)فقد بحث في أجيال أربعة للثينك تانكس:

(1) Think Tanks as policy research istitutions/ (2) The emergence of government contractors/ (3) The rise of advocacy Think Tanks/ (4) Leagacy-based Think Tanks.

نُشر هذا المقال في مجلّة: U.S. Foreign Policy Agenda (an Electronic Journal of the U.S. Department of State) المجلّد السابع، العدد الثالث، ص ص: ٩-١٠.

ويمكن العودة إلى تقسيم ثلاثيّ لريتشارد هاس (Richard N. Haass) في مقالٍ له بعنوان:

« Think Tanks and U.S. foreign policy: a policy- marker's perspective »، في هذا المقال يستحضر ثلاثة أجيال/ موجات (يستخدم ريتشارد هاس العبارتيْن في معنى واحد: The first generation (p:5)) /A second wave (p: 6))، ضمن مجلّة: U.S. Foreign Policy Agenda، مرجع سابق، ص ص: ٥-٦.

يُعدّ حسَب رأينا العملَ الوحيدَ المتكاملَ الذي أُنجزَ حول هذه المسألة. والمعطيات التي فيه يمكن الاستناد عليها للوقوف على كثير من الحقائق التي تخصّ علاقة المعرفة (savoir) بالقوّة (puissance). وننتقي من هذا البحث جملة من الإحصاءات التي سنصوغ، في ضوء تحليلها، بعضَ النتائج ذات الصلة بثنائيّة القوّة والمعرفة. ولكنّنا نشير قبل ذلك إلى أنّ بحث (ماك جان) اتّخذ مستوياتٍ تصنيفيّةً متنوّعة إغناءً له وتطويرا نوعيّا للبحث الذي أعدّه قبل سنة ولاحتْ له فيه نقائص عديدة. وتدور مادّة البحث في الغالب على جداول لأشهر مراكز البحث (الثينك تانكس) يتمّ توزيعها حسب القارّات وحسَب البلدان وحسَب الاختصاص وحسَب التمويل[٣٥]... فما الذي يمكن الاحتفاظ به منه؟

أ/ جغرافيّة عامّة للثينك تانكس:

ذكرت الدراسة أنّ عدد الثينك تانكس في العالَم يصل إلى ٥٤٦٥ تتوزّع على النحو التالي:

- أمريكا الشماليّة: ١٨٧٢ أي ما نسبته ٣٤,٥%.
- أوروبّا الغربيّة: ١٢٠٨ أي ما نسبته ٢٢,١٠%.
- آسيا: ٦٥٣ أي ما نسبته ١١,٩٥%.
- أمريكا اللاتينيّة والكاراييبي: ٥٣٨ أي ما نسبته ٩,٨٤%.
- أوروبّا الشرقيّة: ٥١٤ أي ما نسبته ٩,٤١%.
- إفريقيا: ٤٢٤ أي ما نسبته ٧,٠٧٦%.
- الشرق الأوسط وشمال إفريقيا: ٢١٨ أي ما نسبته ٣,٩٩%.

ب/ الثينك تانكس في الولايات المتحدة الأمريكيّة: رصد تاريخيّ:

- عدد المراكز: ١٧٧٧.
- ٩٠,٥% منها بدأت في الظهور بدءا من سنة ١٩٥١.
- ٥٨% تركّزت في الـ٢٥ سنة الأخيرة.
- تضاعف العدد بدءا من سنة ١٩٨٠.
- أغلب المراكز التي تكوّنت بدءا من سنة ١٩٧٠ نزعتْ إلى التخصّص.
- أكثر من نصف إجماليّ الخبراء العاملين في هذه المراكز من الجامعيّين.

ج/ الدول العشر الأوائل (بحسَبَ عدد الثينك تانكس في كلّ دولة):

⋆ الولايات المتحدة الأمريكيّة: ١٧٧٧. ⋆ المملكة المتحدة: ٢٨٣. ⋆ ألمانيا: ١٨٦. ⋆ فرنسا: ١٦٥.

⋆ الأرجنتين: ١٢٢. ⋆ الهند: ١٢١. ⋆ روسيا: ١٠٧. ⋆ اليابان: ١٠٥. ⋆ كندا: ٩٤. ⋆إيطاليا: ٨٧.

د/ التمويل:

يوجد في التقرير جدولان: الأوّل للمراكز الـ١٥ الأعلى ميزانيّة في الولايات المتّحدة، والثاني للمراكز الـ١٠ الأعلى ميزانيّة في العالَم (عدا الولايات المتّحدة). ونكتفي بذكر نماذج من الجدوليْن تسمح لنا ببعض النتائج.

□

---

[٣٥] * وضع ماك جان شروطا ينتمي بالاستجابة لها مركزٌ من مراكز الفكر إلى خانة الثينك تانكس.

* أخرج ماك جان الولايات المتّحدة من أغلب الجداول التصنيفيّة التي تُعنَى بذكر أوائل الثينك تانكس عالميّا. وبرّر ذلك بأنّ كثرة الثينك تانكس في الولايات المتّحدة وجودتها وقوّتها الماليّة وعمق تأثيرها في صياغة الاتّجاهات السياسيّة الكبرى إنْ دخلتْ منافِسَة غيرَها من خارج الولايات المتّحدة لن تُبْقيَ مكانا لأغلب أولئك المراهنين على موقع ما في التصنيف العالميّ. لذلك وجدناه يفرد للثينك تانكس الأمريكيّين جداول خاصّةً بهم.

نماذج من الثينك تانكس الأعلى تمويلا في الولايات المتحدة:

المؤسّسة	الميزانيّة
RAND Corporation	٢٥١ مليون دولار
Brookings institution	٦٠,٧ مليون دولار
Heritage Foundation	٤٨,٤ مليون دولار
Concil of Foreign Policy	٣٨,٣ مليون دولار
Human Rights Watch	٣٥,٥ مليون دولار
Woodrow Wilson International Center	٣٤,٥ مليون دولار

- أنمَوذج من الثينك تانكس الأعلى تمويلا في العالَم (عدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة):

المؤسّسة	الميزانيّة
Overseas Development Institute	٢٥,٩ مليون دولار

+ اكتفينا بأنموذج واحد من الثينك تانكس الأعلى ميزانيّة في العالَم (عدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة) لأنّه الوحيد منها الذي يتعدّى تمويله الـ٢٠ مليون دولار.
+ لا يوجد في المراكز الأمريكيّة مركزٌ في العشرة الأوائل يهبط تمويله إلى ما دون الـ٢٠ مليون دولار.
+ يبلغ التمويل الإجماليّ للعشرة الأوائل في الولايات المتّحدة ٦٠٦ مليون دولار.
+ لا يتجاوز هذا التمويل للعشرة الأولى في العالَم ١١٢,٢ مليون دولار.
+ ميزانيّة RAND Corporation وحدها (٢٥١ مليون دولار) أعلى بما يربو على ضعف الميزانيّة الجمليّة للمراكز العشرة الأكثر تمويلا في العالَم[٣٦].

إنّ التاريخ المبكّر الذي بدأت فيه بواكير الثينك تانكس تعلن عن نفسها مراكزَ بحث ودعم وتوجيه واستشارة يعكس اليوم الدورَ المتقدّم والريادِيّ الذي تنهض به في عالَمٍ ظاهرُه محكومٌ بقوّة المال والسلاح إلاّ أنّ عمقه تحرّكه أدمغة مارست فنّ الإدارة عن بعد منذ عقود وجمّعتْ بين أياديها الأخطبوطيّة خيوطا كثيرة لصنع الاتجاهات التي تضمن للولايات المتّحدة الأمريكيّة دوامَ سلطانها على العالَم. والأعداد الهائلة لهذه المراكز التي استطاعت أن تحفظ لنفسها مراتبها الأولى في الإحصاء العالميّ تكشف بلا تردّد لا فقط عن انتشارها الأفقيّ في الأرض الأمريكيّة وإنّما أيضا عن تغلغلها العموديّ في صلب الإدارات العموميّة والخاصّة.

لا ريب عندنا في أنّ هذه الكثرة التي تبدو كأنّها جاوزت الحدّ إذا قيست بأعدادِ الثينك تانكس الموزّعة في أنحاء العالَم كلّه، ما كانت لِتكون بهذا الحجم لو لم تكن الحاجةُ ماسّةً إليها. إنها ليست مجرّدَ نوادٍ لِهُواة الفكر، ولا هي موئلٌ لِمَن يحبّون الأبراج العاجيةَ تلك التي يمكنها أنْ تنشأ في أيّة لحظة دون كلفة كما يمكنها أن تنطفئ وقد لا يشعر بانبعاثها غيرُ أصحابها. هذه مؤسّسات عملاقةٌ لم

[٣٦] إذا قارنّا ميزانيّة أشهر مركز فرنسيّ وهو L'Institut français des relations internationales (IFRI) بميزانيّة الثينك تانك الأمريكيّ RAND Coporation وجدنا: ٤,٦ مليون يورو لـ(IFRI) و٢٥١ مليون دولار لـ(RAND). وقد يشعر الفرنسيّ بالخوف في ظلّ هذا المعطى، وقد يرثي لحال المؤسّسات البحثيّة التي تتّبع خطى الثينك تانكس. لكنّ الـ٤,٦ مليون يورو تبدو مبلغا كبيرا في فرنسا التي ليس فيها تقليدٌ في تمويل هذا النوع من المراكز. وقد يبدو (l'IFRI) مفاخرا نظراءه في فرنسا بما تحت تصرّفه. هكذا رآه Yves Derai في مقاله:

Les nouveaux laboratoires du pouvoir:
« Avec ses 4.6 millions d'euros de budget, son immeuble dans le xv^{e} arrondissement et ses dizaines de salariés, l'IFRI fait figure de mastodonte dans le paysage des think tanks français ».

تنشأ من تلقاء نفسها. إنّ كلّ واحدة منها تضمّ أعدادا كبيرة من المتخصّصين في ميادين شتّى. والأموال الطائلة التي تُموَّلُ بها لا يمكن أنْ تكون من باب الهبات التي لا رَجْعَ لها. إنّ مبلغا يتجاوز ١٣٦,٤٨٥,٠٠٠دولارا تضعها مؤسّسة The Ford Foundation في سنة واحدة على ذمّة Brooking Institution أو The Bill and Melinda Foundation أو The Lilly Endowment لا يمكنه إلاّ أنْ يؤكّد أمريْن متلازميْن: حاجة الجهات المانحة للأبحاث والدراسات التي ثفيدها في تطوير مشاريعها، والمردوديّة العالية للأعمال التي تنجزها الثينك تانكس.

لا شكّ إذن في أنّ مواقعَ أساسيّةً في مفاصل الحياة الأمريكيّة تشْغَلُها هذه المراكز. وليس من باب الصدفة أن يتخيّر (جيمس ماك جان) تصديرا لتقريره الذي نحن بصدده يربط فيه دخول رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكيّة البيت الأبيض أو إقدامهم على القيام بأعمال حربيّة واسعة بنجاح الثينك تانكس المرتبطين بهم (لا يعني هذا الارتباط أنّ العاملين في الثينك تانكس موظّفون لحساب هذه الحكومة الاتحاديّة أو تلك) في القيام بما هو مطلوب منها[٣٧].

"الأبواب الدوّارة (revolving doors)[٣٨] عبارة أدبيّة بلاغيّة استخدمها جيمس ماك جان لبَيان المكان الذي نعثر فيه على الثينك تانكس. هذه الأبواب الموجودة في مداخل مقارّ الحكومات الاتحاديّة سِمَتُها حسَب ذاك الإيحاء البلاغيّ الجميل انسيابيّةُ حركةِ الداخل إليها والخارج منها من جهة، وتسهيل عمليّات الرقابة المباشرة والمستمرّة لما يحدث من جهة ثانية. وهذا يشي بأنّ المتحكّم في المشهد كلّه هي هذه المؤسّسات التي اختارتْ المكان أوّلا وسلطة الرقابة عليه ثانيا. وبناء على هذا، ليس مستبعدا أنْ يكون أغلبُ ما يقع في المكان وأحوازه من صنيعة الثينك تانكس وتدبيرا منها. ويستخدم جيمس ماك جان عبارة أخرى في السياق نفسه تكشف، بالإيحاء الكثيف الذي فيها، الوظيفةَ غير المصرّح بها لهؤلاء: "حكوماتٌ في الانتظار" (Goverments in waiting)[٣٩]. إنّ دلالة (in waiting) المتمحّضة لاستمرارِ فِعْلِ الانتظار تؤدّي إلى استنتاج طريف مفاده أنّ هذه المراكز تنغمس في الفعل السياسيّ انغماسا كاملا دون أنْ تتحوّل إلى فاعل سياسيّ مباشر. إنّها على هذا النحو تصنع أدوات التنفيذ التي هي الحكومات المتتالية. وهذا يعني أنّها، وهي تذهب في أداء هذا الدور الخطير إلى هذا المدى من الفاعليّة، تقدّم برهانا على أنّ القوّة الماديّة الظاهرةَ التي تفاخر بها أمريكا وترتعب لها فرائص العالَم ليستْ إلاّ مُنتجًا لقوّة أخرى خفيّة هي قوّة الفكر والمؤسّسات الحاضنة له.

إنّ الثينك تانكس بالانتشار الواسع الذي بيّنّا ملامحَه وبالتأثير العميق في تحديد الاتجاهات الكبرى ورسم مسارات السياسة التنفيذيّة، تدخل طرفا نشيطا في بناء فلسفة القوّة واستنباط ما يحفظ استمرار وحدة الدولة الفيدراليّة. وهي، بالمواقع التي تمارس فيها أدوارها وبالمهمّات التي تنهض بأعبائها، تمثّل عنصرا أصيلا في نسيج الحياة العامّة هناك.

إنّ الأصالة ههنا تستمدّ شرعيّتها من كَوْنِ عُمر الدولة الاتحاديّة وعمر الثينك تانكس واحدا تقريبا. لقد نشآ معا في ظروف واحدة (التنوع والاختلاف والانفصال والبحث عن أسباب الوحدة

---

[٣٧] الأمثلة التي ساقها: رونالد ريغان وبيل كلينتون وجورج بوش وباراك أوباما. أنظر الفقرة الثانية من التصدير. وراجع في هذا السياق مقال جوستان فايس (Justin Vaisse) المعنون بـ: اتّجاهات الفكر في السياسة الخارجيّة الأمريكيّة:

(Les courants de pensée en politique étrangère aux Etats-Unis: Hégémonistes contre gestionnaires)

فبعد أنْ ذكَر بعض الوظائف التي تنجزها مراكز البحث في الولايات المتّحدة الأمريكيّة ذهب إلى رأي لا نعدّه إلاّ صحيحا وهو أنّ هذه المراكز هي المكان الحقيقيّ الذي تُصْنَعُ فيه أقدار الولايات المتّحدة الأمريكيّة وتُشَكَّلُ فيه الإدارات الأمريكيّة بعد كلّ أربع سنوات:

« C'est là que sont battues et élaborées les futures politiques, intérieures ou extérieures, des Etats-Unis, et c'est le vivier où les responsables des destinées de l'Amérique sont recrutés tous les quatre ans », revue Alternatives internationales, n° 1, mars-avril 2002.

[38] The Global <Go-To Think Tanks>, p: 5.

[39] Ibid.

والقوّة). كان كلاهما يبحثُ لنفسه عن شَرْعَنةٍ (légitimation)ما لوجوده. ويبدو أنّ كلّ واحد منهما وجد ضالّته عند الآخَر. فانصهر أحدهما في الآخَر، وأعطى كلّ واحد منهما للآخَر ما به يبقى.

الأصالة التي تهَبُ الثينك تانكس الخصوصيّةَ التي ذكرنا لا تجعل هذه المؤسّساتِ مجرّدَ كيانات وسيطة بين الدولة والمجتمع تلطّف من غلواء السلطة السياسيّة من ناحية، وتبصّر الناس بحقوقهم من ناحية ثانية[٤٠]. هذه المهمّة تسهر عليها أطراف أخرى منها الأحزاب السياسيّة المعارضة وما يُعْرَفُ بمؤسّسات المجتمع المدنيّ. إننا لا ننكر أنّ شيئا من هذا يمكن أن تنهض به الثينك تانكس، فهي، على نحو من الأنحاء، بُعْدٌ من أبعاد الديمقراطيّة الأمريكيّة باعتبارها لا تحيل فقط على تعدّد الفاعلين السياسيّين والاقتصاديّين وغيرهم وإنما تدخّل هي نفسُها عنصرا مباشرا في إثراء التنوّع وتعزيز قيمة الاختلاف عبر المنافسة التي لا تتوقّف بين المراكز البحثيّة ذات الاختصاص الواحد (الأمن، الصحّة، البيئة، الاقتصاد، العلاقات الخارجيّة...). لكنّ الذي نحرص على إبرازه باستمرار هو أنّ الخصوصيّة والأصالة آتيتان في المقام الأوّل من كون الثينك تانكس، هذه القوّة الرمزيّة المتربّعة على عرش المعرفة، يتجاوز دورُها التوسّطَ، بل إننا نراه يتجاوز الشراكة في صنع الرأي العامّ من جهة والإسهام في تسطير مسارات السياسات الإستراتيجيّة من جهة ثانية إلى إنتاج كلّ ذلك وإنْ من وراء حجاب[٤١]. فالثينك تانكس إذن إنْ أردنا أنْ نعرّفها تعريفا جامعا لا يُغْفل أهمّ ما به تتميّز قلنا: إنّها المعرفة المؤسّسيّة المستقلّة والأصيلة في تربتها الحضاريّة التي تصنع الدولةَ الاتحاديّة القويّة ذات النزوع الامبراطوريّ في التاريخ المعاصر.

الثينك تانكس: حين تكون الأفكار سلعة تباع في الأسواق

متى يكون للفكر قيمةٌ مضافة يكتسب بها جدارة التأثير العميق؟ وما معنى أنْ يكون للفكر ثمنٌ وسوقٌ ومُشترٍ؟ ألهذا الحدّ يستطيع منتجو الأفكار أنْ يفرضوا أنفسهم على دوائر صنع القرارات الحاسمة في حياة الشعوب؟ وهل نحن مع جماعات ضغط فكريّة أشبه باللوبيّات. نودّ أنّ نتطرّق إلى علاقة الفكر بالسوق انطلاقا من شهادة طريفة جاءت على لسان فيليب مانيير (Philippe Manière) رئيس المعهد الفرنسيّ للعلاقات الدوليّة (IFRI) في معرض حديثه عن المرحلة التالية لإنتاج الأفكار التي تتولاّها مؤسّسته: "عملي بعد ذلك هو بيع أفكارنا للمسؤولين في هذا البلد". وليس بيعُ الأفكار أمرا يسيرا. فقد تعترض تسويقَه صعوباتٌ جمّةٌ: "إنّي أُمضي وقتا طويلا في البرلمان وفي مكاتب الوزراء"[٤٢]. هذه الشهادة فيها ما هو خاصّ بفرنسا على وجه التحديد، ولكنّ هذا الخاصَّ ينطبق على كلّ البلدان التي لم تعرفْ الثينك تانكس. وفي الشهادة أيضا ما يمسّ في الجوهر بعضَ خصائصِ بيئةِ الثينك تانكس.

---

[٤٠] نجد هذا الرأي عند Pierre Lepetit في مقاله: دور الثينك تانكس (Le role des think tanks). فقد أوجد شَبَهًا بين هذه المراكز والهياكل الوسيطة (corps intermédiaires) التي تحدّث عنها الفيلسوف الفرنسيّ توكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩) (Tocqueville) وما تقوم به من دور موازٍ (contrepoids) للدور الذي تقوم به الدولة، مرجع سابق.

[٤١] يُعبَّر عادة عن القرارات والتوجّهات التي يُشَكُّ في مَنْ يقف خلفها تعبيرا يُظهر عدم الارتياح أو السخرية مفاده أنّ أياديَ خفيّةٌ هي مَن يحرّك خيوط هذا المشهد أو ذاك. ولكنّ الثينك تانكس، وإنْ بدا التعبير الرائج منطبقا عليها في الظاهر إلاّ أنّها ليست كذلك حقّا. فوجودها خلف الستار لا يجعلها عنصرا يتسلّل إلى مواقع ليست له. فالعلاقة بين المعلوم والمستور علاقة تكامل: تخطيط وتنفيذ. ونحن نتّفق في هذا المعنى مع ما ذهب إليه دو ليللّو (De Lillo) لمّا رأى إنّ التاريخ ما هو إلاّ قصّة يصنعها بضْعُ رجال في غُرف (مغلقة). نقلا عن: ستيف واترز (Steve Waters) من مقالته: الأدمغة الشرّيرة/الخطرة (Dangerous minds)، مجلّة الغرديان البريطانيّة (The Guardian)، ١٠ نوفمبر ٢٠٠٤.

[٤٢] نقلا عن إيف دوريه في مقاله: Les nouveaux laboratoires du pouvoir مرجع سابق، ص: ١٠٤.

فأمّا ما هو خاصّ، فموضوعُه أنّ العلاقة بين الدولة الفرنسيّة والثينك تانكس جديدةٌ لا تاريخ لها. فالدولة الفرنسيّة، كما رأينا، تعتقد أنّها وحدَها مَن يحتكر تقدير الصالح العامّ ومَن له القدرة على استشراف معالم المستقبل وتوقّع ما يطرأ من مشاكل وما يُستدْعَى من حلول[٤٣]. وبناءً على هذا، نعتقد أنّ إمكانيّة تنازل الدولة السهل والطوعيّ عمّا كانت تعتبره سببا من أسباب وجودها فرضيّةٌ صعبةُ التحقيق.

ولا شكّ عندنا في أنّ فيليب مانيير وهو يرابط على أبواب المسؤولين وأصحاب القرار ويتسلّح بالصبر الجميل عساه يُقنع مَن يَعْرِض عليه بضاعته بجدواها، يعي مسألتيْن أساسيّتيْن: إنّه يكافح من أجل إرساء تصوّر جديد للعلاقة بين المعرفة والسلطة من جهة، وإنّه يعطي للمراكز البحثيّة الفرنسيّة أدوارا لم تكن من قَبْلُ تعرفها من جهة ثانية. وهو حين يخوض في ما هو خائض فيه يحيلُ على درجة ثالثة من الوعي قد تتقدّم في الأهميّة على المستويَيْن آنِفَيْ الذكر. نقصد الإيمانَ بأنّ مصير فرنسا (وأوروبّا حتما) لم تعُد الدولةُ وحدَها قادرةً على تسطير معالمه. فأوروبّا القويّة تاريخيّا لم يعُدْ في إمكانها أن تكون كذلك في ظلّ سياق عالميّ شهد منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية خروج الولايات المتّحدة الأمريكيّة نهائيّا من السياسة الانعزاليّة التي كانت تتخذها اختيارا استراتيجيّا.

وأمّا ما يمسّ بيئة الثينك تانكس فيتجلّى عبر ما انكشف للمراقبين وخصوصا للأوروبيّين منهم أنّ نزوع قوّة الولايات المتحدة الأمريكيّة الدائم إلى أنْ تكُون قوّةً إمبراطوريّة تنشر سلطانها في أرجاء الكون وراءه جحافلُ من المفكّرين والخبراء والعلماء يتوزّعون على مؤسّسات تتنافس من أجل تقديم المسالك الأكثر ضمانا لتلك القوّة الإمبراطوريّة ولشبكات المصالح والمنافع المتحرّكة في كنفها. إنّ الأموال الضخمةَ التي تُموَّلُ بها تلك المؤسّسات لإنتاج المشاريع الفكريّة الكبرى ممّا يميّز حركةَ الفكر المؤسّسيّ في الولايات المتحدة الأمريكيّة. فاجتذاب المتخصّصين إذن للخدمة في هذا المركز البحثيّ (think tank) أو ذاك، جزءٌ من المنافسة.

والأمثلة الدالّة على المنافسة وعلى سطوة المال فيها، كثيرةٌ. ونكتفي منها بمثال نرى من خلاله إلى أيّ مدى تندفع الجهاتُ المانحة إلى تبنّي المؤسّسات البحثيّة وإغداق المال عليها: اجتمع في شهر أفريل ٢٠٠٥ بولاية أريزونا سبعون رجلا ديمقراطيّا من أشدّ رجال الأعمال ثراءً بدعوةٍ من الخبير الماليّ روب ستين (Rob Stein) الذي كان أحد أعمدة إدارة الرئيس بيل كلينتون. ورسم المجتمعون هدفا مركزيّا وسُبلا لتحقيقه: أمّا الهدف، فالوقوف في وجه أقوى ثينك تانك محافظ (Heritage Foundation)، وأمّا السبل فبُوَّرَتْها توفيرُ ما يلزم من الدعم للمراكز البحثيّة الليبراليّة حتى تنهض بالمهمّة. ويبدو أنّ الهبة المقَدَّرَة بـ٢٣ مليون دولارا تلك التي قدّمها جون بودستا(John Podesta) سكريتير البيت الأبيض في عهد بيل كلينتون قبل ذلك بسنة وفّرتْ أرضيّة للانطلاق في مشروع إسقاط "امبراطوريّة" الـ Heritage Foundation[٤٤]. وكان "مركز التقدّم الأمريكيّ" (Center of American Progress) الذي رأى النور سنة ٢٠٠٣ من المراكز السبّاقة لمنافسة أطروحات

---

[٤٣] في هذا الإطار يبدو Derai، وهو يضع عنوان مقاله السابق، مستشعرا الخصوصيّة الفرنسيّة. لقد جاء في العنوان عدولا (écart) عمّا جرى به الاستعمال: فبَدَلَ أن تكون عبارة "المِخْبَر/ المختَبَر" (laboratoire) مرتبطة بـ"الفكر" (pensée) ترجمةً من الترجمات المحتَمَلة والمتداوَلة لـ: « Think Tanks » رأيناه يقترح كلمة: "السلطة" (pouvoir)، وكأنّ المسكوت عنه هنا هو أنّ أقصى ما تستطيعه الدولة التي تعوّدتْ أنْ ترى نفسها الأقدر من غيرها على إنتاج الأفكار الكبرى هو أنْ تقبَلَ بهذه المؤسّسات الجديدة (think tanks) باعتبارها جزءا يتبعها توظّفه عندها على النحو الذي تريد وليس سلطة منفصلة عنها تفتكّ منها حقّا أصيلا لها. وينبغي الإلحاحُ على أمر مهمّ وهو أنّنا نتّخذ العلاقة بين السلطة السياسيّة في فرنسا ومراكز الفكر العاملة عَمَلَ الثيك تانكس مجرّد مثال وليس استثناء.

[٤٤] تجدر الإشارة إلى أنّ جون بودستا أسّس سنة ٢٠٠٣ "مركز التقدّم الأمريكيّ" (Center for American Progress <CAP>) في سياق استحداث مراكز فكر منافسة لـ(Heritage Foundation) المدافع الصلب عن التيّار المحافظ.

المحافظين رغم أنه انطلق بزاد بشريّ وماليّ قليل (٠٦ باحثين ومليون دولار)[٤٥]. وكان يلقى المؤازرة من مؤسّسة (The Open Society Institute)[٤٦].

ولا ريب أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، في ضوء المعطيات الجيوسياسيّة التي أفرزتها الحرب العالميّة الثانية أوّلا ونهاية الحرب الباردة ثانيا، صارت في قلْب العالَم. ولا ريبَ أيضا أنّ مراكز الفكر أضحت بتلك المنزلة التي للدولة تواجه تحدّيات كبرى. ولذلك فالمنافسة بين هذه المراكز البحثيّة بأعدادها الهائلة من أجل التأثير في السياسات التوجيهيّة الكبرى للدولة تسير نحو احتدام متصاعد[٤٧] في سوقٍ رَحْبٍ ولكنّ فرصَ التسويق فيه تكون للأجدَر حصرا[٤٨]. فسوق الأفكار النشيط يعمل وفق سلسلة من المراحل المتعالقة: المالُ الوفير أوّلا[٤٩]، والخبير ذائع الصيت ثانيا، والفكر المؤثر ثالثا، وتبنّي المنتوج من الجهات التنفيذيّة (les décideurs) رابعا. وبناءً على هذا، يتّخذ البيع في سوق الأفكار خصائص لا نجدها في غيره.

وتقتضي هذه السلسلة شرطا لا محيد عنه وهو استقلاليّة تلك المؤسّسات عن السلطة الحاكمة. وأبرزُ مرتكَز لهذه الاستقلاليّة عدمُ قبول الدعم والتمويل والهبات التي يكون مصدرها الدولة. إنّ حصول أمر كهذا يجعل المؤسّسة البحثيّة مرتهَنَة في توجّهاتها لإملاءات السلطة السياسيّة وخاضعة للضغوط التي تمارسها عليها. هذا لا يعني أنْ لا علاقةَ بين الثينك تانكس وتلك السلطة. إنّ كليهما في حاجة إلى الآخَر، ولكن دون أنْ يخرجَ كلّ واحد منهما من المدار الذي يتحرّك فيه. وههنا ميزة أخرى تُعطي للثينك تانكس أصالتها في بيئتها الأولى. وترتبط الاستقلاليّة في مجتمع تعدّديّ وفي ظلّ اختيارات إيديولوجيّة واقتصاديّة ليبراليّة ارتباطا وثيقا بالحريّة. وهُمُا، في هذا الوثاق الذي يشدّ أحدَهما إلى الآخَر، عنوانٌ ساطعٌ للديمقراطيّة. ولا غرابةَ حينئذ أنْ نرى كثيرا من الدراسات تميل إلى جعل الثينك تانكس تعبيرا عمليّا عن الممارسة الديمقراطيّة وركنا أصيلا من الحياة التعدّديّة رغم الطابع التنافسيّ ذي الميسم التجاريّ الذي يتراءى على السطح. إنّ عُسْر الترجمة وصعوبة نقل الدلالة إلى غير تربتها، بعد كلّ الذي تقدّم إذن، علّته تكمن في عدم وجود حياة ديمقراطيّة يكون فيها لهذا النوع من مؤسّسات الفكر الدورُ الذي يلعبه في الولايات المتحدة الأمريكيّة[٥٠].

وانطلاقا من المعطيات التي سُقْنَا لا مناصَ من وضْع السلوك التنافسيّ في أبعاده الثقافيّة والفلسفيّة والسياسيّة التي تتجاوز في عمقها حصادَ السوق الماديّ مهما ارتفعتْ تنافُسِيَّته. ويكفي إلقاء نظرة

---

[٤٥] بلغت ميزانيّته بعد سنوات قليلة ٢٠ مليون دولارا وأصبح يشغّل ١٠٦ باحثا. وهذا دليل على قوّة المنافسة بين المراكز الفكريّة وشهادة على الثقة التي يضعها المموّلون فيها.

[٤٦] تأسّس سنة ٢٠٠٣ برئاسة جورج سوروس (Georges Soros).

[٤٧] احتدام المنافسة يتحوّل إلى ما يشبه الحرب بين مراكز البحث. واستخدامُ عبارة "الحرب" متواترة في الدراسات المعنيّة بهذه المسألة. فقد ألّف على سبيل المثال رايش أندرو (Rich Andrew) بحثا قيّما عنوانه:
War of ideas: why mainstream and liberal foundations and the think tanks they support are losing in the war of ideas in American politics, in Stanford Social Innovation Review, Spring, 2005
ووضع كلّ من من ستيفان بوشيه ومارتن رويو عنوانا فرعيّا: (cerveaux de la guerre des idées) لعنوان كتابهما الرئيسيّ:Les think tank ، مرجع سابق.

[٤٨] وليس عجيبا في مُناخ ثقافيّ واجتماعيّ وسياسيّ يُعطي منزلة مرموقة للأفكار أن يتجاوز التعبيرُ عن حيويّة النشاط الفكريّ المؤسّسيّ معجمَ السوق إلى معجم الحرب.

[٤٩] مصدر المال الجهاتُ المانحة. وكلّما كان الدعم كبيرا كانت الأفكار كبيرة في ما يشبه العلاقة العلّيّة. وهذا تقريبا ما عبّر عنه رايش أندرو (Rich Andrew)وهو يعلّق على نجاح المحافظين في استمرار القيادة فيهم: "يتواصل في هذه اللحظة نجاح المحافظين في حرب الأفكار، وهذا النجاح لا يسجَّلُ بسبب قوّة الأفكار وحدَها. إنّه تحقق لأنّ هذه الأفكار كان وراءَها مؤسّسات ناجحة"، من مقاله: War of ideas، مرجع سابق، ص: ٢٥.

[٥٠] ممّا نقرأ في هذا الإطار لـ: ألان فوبيان (Alain Faupin):
« Inséparables de la société américaine, les think tanks ne sont pas aisément transposables à d'autres systèmes où à d'autres pays, ils reflètent une culture essentiellement anglo-saxonne et de bonne gouvernance démocratique », Revue internationale et stratégique, p: 97.

خاطفة على الأهداف البعيدة التي رسمتها مؤسّسة Heritage foundation على سبيل المثال لنعلم أنّ الحفاظ على القيم التي تدين بها الولايات المتّحدة الأمريكيّة كان في صميم انشغالاتها[٥١]. إنّ التنافسيّة إذن ركْن من أركان التعدّديّة وعلامة دالّة على أنّ الأجدرَ من غيره هو الأقدرُ على تسويق بضاعته. فسوق الأفكار إذنْ لا يمكن أنْ نتحدّث عنها إلاّ في بيئة لها المواصفاتُ التي كنّا نعدّد.

إنّ من سُخْفِ الرأي طبْعًا القولُ إنّ فيليب ماني‍ير بذاك العزم الكبير على تسويق بضاعته يطلب مقابلا ماديّا يعودُ به إلى مختبَره هَنِيّ البال وهو يمتّي النفسَ بربْحٍ أكبرَ في المرّة القادمة. إنّ لِبَيْعِ الأفكار سوقاً نعم، ولكنّها ليستْ كسائر الأسواق. والثابت أنّ ماني‍ير في ما قاله لم يأتِ بجديد. فَلْنَسْتمِعْ إلى هيرب بركويتز(Herb Berkowitz) الاسم اللاّمع في واحدة من أخطر مؤسّسات الفكر في نيويورك: The Heritage foundation وهو يقول في حوار أجراه معه رايش أندرو (Rich Andrew) بعد أنِ استعرض مراحلَ العمل في مؤسّسته وصولا إلى طباعة ما تمّ إنتاجه: "حين ننتهي من طباعة العمل، نكون قد أنجزنا نصفَه فقط. إنّ ما يبقى هو بيْع الأفكار لوسائل الإعلام"[٥٢]. وينهي تعليقه بموقف صريح لا لَبْسَ فيه: "تلك هي مهمّتنا"[٥٣]. فكلام الرجليْن الفرنسيّ والأمريكيّ واحد تقريبا: إنتاج الفكر ومشقّة التسويق. إلاّ أنّ لكلّ كلام سياقا. فالثينك تانك الفرنسيّ يعاني من كساد السوق نظرا إلى عدم تحمّس السلطة السياسيّة للدخول في هذا الأفق الجديد. وأمّا الثينك تانك الأمريكيّ فالذي يؤجّر عمليّة بيع ما ينتج هو كثرة المعروض التي تقتضي فنونا في العرض وجودة في المنتوج ودوائر ضغط متأهّبة دوما للمساعدة على التأثير في أجهزة الحكم التنفيذيّة. ولذلك سنرى طرَفا ثالثا يُستدْعَى: وسائل الإعلام. وللإعلام سلطانٌ، وأيّ سلطان، في الولايات المتّحدة الأمريكيّة[٥٤]! إنّنا إذن إزاء مزاحمةٍ من نوع آخَر تدور رحاها بين المؤسّسات الإعلاميّة. والراجح عندنا أنّ "البضاعة" وهي تُسَوَّقُ يُرَادُ لها بالإعلام أنْ تصل إلى مَنْ يرغب فيها وقد أخذت معها في الطريق إليه انطباعاتٍ جاءتها من الرأي العامّ. وهكذا يُضاف إلى الأطراف الثلاثة جهةٌ رابعة وهي الرأي العامّ. قناة الإعلام إذن تؤدّي في هذه الحال دورا خطيرا وهو الدعاية[٥٥] (وهذا يدخل في باب التسويق وفنونه) من ناحية، وتكوينُ قوّة ضاغطة على "المشتري" من جهة ثانية (وهذا يدخل في باب المنافسة الديمقراطيّة). وعند هذا المستوى تحديدا تفترق الثينك تانكس عن المؤسّسات والمراكز ودوائر الفكر والثقافة التي قد يوهم شيئا من سلوكها أو نشاطها بأنّها من الثينك تانكس.

---

[٥١] تُعرّف هذه المؤسّسة حسَب ما جاء في موقعها الإلكترونيّ كما يلي:
Founded in 1973, The Heritage Foundation is a research and educational institution—a think tank- whose mission is to formulate and promote conservative public policies based on the principles of free enterprise, limited government, individual freedom, traditional American values, and a strong national defense. (www.heritage.org).

[٥٢] راجع ذلك في مقال رايش أندرو: War of ideas، مرجع سابق، ص: ٢٥.

[٥٣] نفسه. وإطلاق مصطلحاتٍ مُجتَلَبَة من عالم التجارة والمال تنزيلا للفكر في دائرة الاستهلاك ليس أمرا غريبا. وقد يستخدم البعض عبارة "مقاولات الفكر" للتأكيد على التسويقيّ والتنافسيّ في عالم الأفكار. للتوسّع يُمكن العودة إلى جون جودمان (Jhon C. Goodman)في مقاله: "ما الثينك تانك؟" (What is a think tank) المنشور في الموقع الإلكترونيّ للمركز الوطنيّ للتحليل السياسيّ (National Center for Policy Analysis <NCPA>)، www.ncpa.org/pub، أنظر خاصّة الفقرة المعنونة بـ: Marketing Ideas والفقرة المعنونة بـ: Intellectual Entrepreneurs.

[٥٤] لمزيد التوسّع في الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام على الصعيد الدوليّ يمكن العودة إلى الملفّ الذي خصّصته مجلّة: La Revue Internationale et Stratégique, n° 78, été 2010
تحت عنوان: « Les médias peuvent- ils changer la politique internationale »

[٥٥] أنفقتْ مؤسّسة Heritage foundation على سبيل المثال في سنة ٢٠٠٢ ثلث ميزانيّتها البالغة ٣٣ مليون دولار على الاتّصال والعلاقات العامّة. (حسَب ما جاء في مقال رايش المذكور سابقا، ص: ٢٥).

ملاحظات في مقام الخاتمة (العرب والثينك تانكس)

كان ميْلُنا صريحا للاشتغال على المقاربة الفرنسيّة لمراكز الفكر (الثينك تانكس) الأمريكيّة وإمكانات استدراج مفاعيلها خارج بيئتها الأمّ. اخترنا ذلك في محاولةٍ لاستكشاف آفاق ظهور هذا النمط من المؤسّسات الفكريّة في بلاد عُرفتْ تاريخيّا بعظمة إنتاجها الفكريّ المتنوّع ورُقيِّه. ورجّحنا أنّ النتائج التي سننتهي إليها من دراسة هذا المثال تنسحب بيُسْر على النماذج الشبيهة الأخرى. وخلصنا في نهاية المطاف إلى أنّ اتجاهات القوّة التي تتحرّك فيها الولايات المتحدة الأمريكيّة ليستْ إلاّ تجلّيا من تجلّياتِ قوّةٍ خفيّةٍ أو "ناعمةٍ" هي قوّة الفكر. ولكننّا نبّهنا إلى أمر أساسيّ وهو أنّ الفكر لا يكون قويّا ما لم يكن عصارةَ جهد ليس جماعيّا فحسْب، وإنما مؤسّسيّا تنهض به تشريعاتٌ وتضْمَن نجاحَه بيئةٌ تعدّديّة وديمقراطيّة. وقد ساقنا البحثُ إلى أنّ الفرنسيّين كأنّما ذهِلوا وهم يكتشفون هذه القوّة المركّبة من طبقاتٍ معقّدة (الفكر، المال، الاستقلاليّة، الديمقراطيّة، الإعلام، جماعات الضغط). ورأيناهم كأنّما يسابقون الزمن وهم يفتحون باريس لمراكز الفكر الجديدة حتّى وإن كانت في نسختها الأولى تقليدا باهتا للأصل[٥٦]. وبالرغم من توَفُّرِ فرنسا على بيئة مهيّأة تاريخيّا وثقافيّا وفلسفيّا وسياسيّا لظهور نشاط فكريّ قويّ ومؤثّر، غيرَ أنّ ذلك لم يظهر فيها. وربّما كانت بنيةُ الدولة فيها وتقاليد الفعل الثقافيّ داخلها، رغم العراقة الديمقراطيّة ورسوخ ثقافة استقلال المؤسّسات الكبرى بعضها عن بعض هناك، تمنعان أو تُبَطّئان تبْييئَ الثينك تانكس في التربة الفرنسيّة.

لم نذكُر، وإنّ همسا، أيّ أنموذج عربيّ. وهذا مفهوم عندنا على الأقلّ. فالمؤسّسات الفكريّة التي لا تقْنَعُ بتسطير معالم الداخل المحلّي/الوطنيّ وإنّما يمتدّ بها البصرُ بعيدا لِتجْعَل الخارج مسرحا لتحصيل المنافع وميدانا للقيادة والسيطرة لا يمكن موضوعيّا التوهّم بإمكانيّة ظهورها في البلاد العربيّة وإنْ في الآفاق البعيدة جدّا. ليس هذا تجنّيا قطعًا.

لِنَعُدْ إلى دراسة جيمس ماك جان "The global <Go-to think tanks>" الإحصائيّة. ففيها معطياتٌ ينبغي التوقّف عندها:

- الجدول الوارد بين الصفحتيْن ١٨ و٢٦ أكبر جدول في التقرير. وفيه استعراض لـ٤٠٧ ثينك تانكس المنتشرين في العالَم كلّه والذين دخلوا على نحو من الأنحاء في التصنيف طبق "الشروط" الموضوعة. ونصيب المؤسّسات البحثيّة العربيّة ثمان (٠٨). وهو، دون أدنى شكّ، رقم خجول (حتّى لا نقول إنه مُخجل).
- قَسّم التقريرُ العالَمَ إلى أقاليمَ. وذكَر ما يوجد في كلّ إقليم من مراكز وما نسبته من المجوع العامّ. وسَمّى الإقليمَ الذي يوجَد فيه العرب: الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. ونسبة ما فيه من المراكز: ٣,٩٩%. وهي الأدنى على الإطلاق.

---

[٥٦] نذكّر في هذا المقام بأنّ الكتابة (اكتشافا) في موضوع الثينك تانكس تعود إلى عهد قريب وهو عقد التسعينات من القرن العشرين. وكانت النماذج الأمريكيّة تستحوذ على اهتمام الدارسين. والبحوث التي تتناول تجاربَ أوروبيّة شبيهة بالثينك تانكس تأتي في مقاربة مُقارنيّة. ويبدو أنّ أطروحة الدكتوراه المتخصّصة في الثينك تانكس التي نوقشتْ في السوربون في ٢٠٠٥/١٢/٠٦ من الأعمال الأكاديميّة القليلة والسبّاقة في هذا المجال (عنوان الأطروحة:

Le role des Think Tanks dans le processus de décision de politique extérieure: analyse comparée, Etats-Unis, Royaume-Uni, France)

وهي من إعداد: Lucile Desmoulins

وللاطّلاع على تقديم مفصّل للأطروحة يمكن العودة إلى الوقع الرسميّ لجامعة السوربون:

www.paris-sorbonne.fr/fr/spip.php(article3146).

وخارج المجال الأكاديميّ يبدو كتاب ستيفان روشيه ومارتن رويو:

Les think tanks: cerveaux de la guerre des idées

الذي ظهر في السنة نفسها (٢٠٠٥)، أوّل عمل في هذا المجال حسَب ما صرّح به واضعُ مقدّمته باسكال لاميه، مرجع سابق.

- في التقرير جداولُ تفاضليّة كثيرة، تتراوح بين التسامح والصرامة:
  - في العشرة الأوائل لا وجود لأيّ مركز عربيّ.
  - في الخمسين الأوائل (دون أن يكون من بينها مراكز أمريكيّة)[٥٧] لا وجود أيضا لأيّ مركز عربيّ.
- في التقرير جداول لأفضل ٢٥ مركز في كلّ إقليم. ولفتَ نظرَنا أمرٌ وهو أنّ الجدول الخاصّ بإقليم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ضمّ ٢١ مركزا فقط رغم أنّ عنوانه: "Top 25 Think Tanks in Middle East and North Africa"، في ما انغلقت الجداول الأخرى بـ٢٥ كما هي الخطّة. ولم يَفُتْ جيمس ماك جان أنْ يسجّل ملاحظة أسفل الجدول تبريرا للاختلاف الحاصل بين عنوان الجدول ومحتواه مفادها أنّ المقاييس الموضوعة لم تسمح إلاّ بهذا العدد[٥٨].
- وقع اختزال العدد ٢٥ الذي يخصّ إقليم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا فأصبح إذن ٢١ للسّبب المبيَّنِ أعلاه. ولكنْ، ومع ذلك، ثمّة ما هو أسوأ. فَلْنَرَ مكوّنات هذا الرقم:
  - للمراكز الإسرائيليّة نصيب في هذا الرقم: ثمانية مراكز كاملة.
  - ولتركيا نصيب أيضا: ثلاثة مراكز.
  - وكذلك لأذربيجان: مركز واحد. وهكذا ينزل العدد العربيّ نزولا مفجعا ليستقرّ عند(٠٨)[٥٩] بدل (٢١). وما الرقم (٠٨) إلاّ ذاك الذي ورد في الجدول الأكثر تسامحا (جدول الـ٤٠٧ ثينك تانكس).
- في شمال إفريقيا بدوله الخمس مركزٌ واحد استطاع أن يفتكّ لنفسه موقعا في التصنيف. وهذا مدعاة إلى القلق من ناحية، غير أنّه يوفّر لنا فرصة للإمساك بـ"قانون" من قوانين التخلّف التي يمكن أنْ تكون صالحة لتفسير المراتب التي تكون فيها منازل الدول والأمم من ناحية أخرى.
- يوجَد مركزان في أراضي السلطة الفلسطينيّة[٦٠]. ولمّا كانت مراكز الثينك تانكس في نسختها الأصليّة تعمل في جغرافيّة الدولة الوطنيّة وفي بيئة من أبرز خصائصها الحريّة والاستقلال، نعتقد أنّ حضور هاتيْن المؤسّستيْن غير مقنع. وبهذا يتناقص العدد مرّة أخرى.
- أورد جيمس، ماك جان في التقرير أنّ المجاليْن الأساسيّيْن اللذيْن تنشط فيهما مؤسّسات الفكر في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا هما: الدَّمَقْرَطَةُ (democratization) والسياسات الاقتصاديّة. والاستنتاج المباشر والسريع الذي نخرج به هو أنّ هذه المراكز ليست، بالقياس على الأصل، من الثينك تانكس. إنّها في الحدّ الأقصى جمعيّات أو منظّمات حقوقيّة تناضل من أجل صياغة فضاء اجتماعيّ وسياسيّ واقتصاديّ حرّ، في حين أنّ الحريّة قيمة أصيلة في التربة التي نشأت فيها مراكز الثينك تانكس الأصليّة.

ألححْنا على أنّ الثينك تانكس مكوّنٌ أصيل في تاريخ الدولة الاتحاديّة الأمريكيّة وحاضرها. وربّما نزَعْنا إلى التصريح بأنّ إمكاناتِ استحداث هذا النمط من المراكز البحثيّة في غير البيئة الأمريكيّة لا تؤتي الثمارَ نفسها التي نراها في بيئتها الأصليّة. ولكنّنا لا نعني قطعا أنّ ظاهرة الثينك تانكس ينبغي

---

[٥٧] يَعْمَد التقرير في الغالب، كما ذكرنا في مناسبة سابقة، إلى عدم إقحام المراكز البحثيّة للولايات المتّحدة في المنافسة العالميّة حتّى تُتاحَ الفُرَص للمراكز الأخرى فتجد لها مكانا في التصنيف.

[٥٨] التقرير، جدول رقم ٨، ونصّ الملاحظة هو:

"Fewer than 20 think tanks in the region received the necessary nominations required to be included in the selection process", table: 8, p: 31.

[٥٩] سقط من جدول الـ(٤٠٧): مركز الإمارات العربيّة المتّحدة للدراسات الإستراتيجيّة والبحوث.

[٦٠] هما: مركز فلسطين للدراسات والبحوث، والجمعيّة الفلسطينيّة الأكاديميّة للشؤون الدوليّة.

أنْ تبقى في فضائها الجغرافيّ والتاريخيّ والثقافيّ الذي نشأت فيه. لقد ساقنا إلى ذاك التقدير إيماننا بأنّ العلاقة المركّبة والمعقّدة بين الفكر (pensée) والقوّة (puissance) والسلطة (pouvoir) ما كان لها أن تكون على النحو الذي كانت عليه في الولايات المتحدة الأمريكيّة لولا توفُّر جملة من الشروط أبرزها التعدّديّة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، والعقيدة التحرّريّة التنافسيّة، واعتبار الديمقراطيّة طريقا وحيدة في الحكم، واعتبار الفكر المستقلّ عاملَ توازن سياسيّ ومصدر قوّة معرفيّة وإيديولوجيّة. وهذا ممّا يُعسِّرُ استنباتَ نظير له في بيئات ليس فيها للشروط التي عدّدنا بعضَها وجود مؤثّر.

ولا شكّ في أنّ الدول التي لم تعرف نهضة حقيقيّة في مجال القيم والعلوم، ولم ينشأ فيها نشوءا طوعيّا وفعليّا إيمانٌ صادق بأنّ الفكر ينبغي أنْ يكون حرّا ومستقلاً، ولم تنفصل فيها قوّة المال عن سلطان السياسة، ولم تتكوّن فيها مؤسّسات وسيطة بين أجهزة الحكم والمجتمع، لا يمكن أنْ تُنتِجَ ثينك تانكس بالمواصفات التي عَرَضْنَا ولا يمكن أنْ تكون دولا ذاتَ طموح إلى ملْء معقد متقدّم ومرموق في المشهد السياسيّ الدوليّ.

المراجع:

هيكل محمّد حسنين، الزمن الأمريكيّ من نيويورك إلى كابل، المصريّة للنشر العربيّ والدوليّ، ٢٠٠٢.

- Abelson Donald, Think tanks and U.S foreign policy: an historical view, in U.S Foreign Policy Agenda (An Electronic Journal of the U.S Department of State), vol. 7, n°3, November, 2002. (www.usinfo.state.gov/journals.
- Andrew Richard, War of ideas: why mainstream and liberal foundation and the think tanks they support are losing in the war of ideas in American politics, in Stanford Social Innovation Review, Spring 2005.
- Boucher Stephen et Royo Martine, Les think tanks: cerveaux de la guerre des idées, Le Félin, Paris, 2009.
- Carpentier-Tanguy Xavier,

  + Diplomatie intellectuelle: les think tanks comme acteurs de l'européanisation de la France, in revue Etudes européennes(www.etudes-europeennes.eu.), 15/04/2010.

  + Influences et innovations politiques: les think tanks (perspective historique), in Etudes européennes, 30/03/2006.

  + Les think tanks: origine et perspectives, www.nonfiction.fr, 22/02/2008.
- Derai Yves, Think tanks: les nouveaux laboratoires du pouvoir, in revue l'Optimum, n° 71, 2004.
- Faupin Alain, La pensée au service de l'action: les think tanks américains, in Revue internationale et stratégique, n° 52, hiver-2003-2004.
- Goodman Jhon, What is a think tank?, www.ncp.org/pub, December 20, 2005.
- Guisnel Jean, Les think tanks français massacrés dans un classement américain, Le Point.fr, 21/05/2009.
- Haass N. Richard, Think tanks and U.S foreign policy: a policy-marker's perspective, in U.S Foreign Policy Agenda, vol. 7, n° 3, November 2002. (www.usinfo.state.gov/journals.
- Jouranal Management (rédaction), Think tanks: un concept made in USA, www.jouraldunet.com/management.
- Lepetit Pierre, Le rôle des think tanks, in revue Problèmes économiques, n° 20912, 06/12/2006.

- McGann James,

  + The Global Go-to think tanks, in Foreign Policy, Think tanks and Civil Societies Program, University of Pennsylvania, 2008.

  + Think tanks and policy advice in the United States: academics, advisors and advocates, New York, Routledge, 2007.

- Medvetz Thomas, Les think tanks aux Etats-Unis: l'émergence d'un sous-espace de production des savoirs, traduit de l'anglais par Camille Joseph, in Acte de la recherche en sciences sociales, n° 174.

- Reed W. Lawrence, Ideas and concequences: a student's essay that changed the word, www.thefreemanonline, vol. 55, issue 4, May 2005.

- Samaan Jean-Loup, L'origine militaire des Think Tanks: le cas américain, in revue Chantiers politiques, n° 5, printemps 2007.

- Smith Allen James, The idea Brokers: think tanks and the rise of the new policy elite, New York, Maxwell Macmillan international, 1991.

- Vaisse Justin, Les courants de pensée en politique étrangère aux Etats-Unis: Hégémonistes contre gestionnaires, in revue Alternatives internationales, n° 1, mars-avril 2002.

- Waters Steve, Dangerous minds, The Gardian, November 10, 2004.